بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــدير

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أكرم المرسلين إمامنا ، وزعيمنا ، ورائدنا سيدنا محمد ﷺ .

أما بعد . . .

فإن العصر الجاهلى كان وما يزال ، وسيظل طرزًا فريداً يترسم الشعراء والأدباء فى كل عصر من الأعصر طرائقه ، ويهتدون بمسالكه ، وينسجون على غراره حيث إنهم وجدوا فيه ضالتهم المنشودة من حيث وحدة الوزن والقافية وتعدد الموضوعات ، وطرائق التفسير ، وضروب الخيال .

فهو بحق ينبوع ثَر ، ومعين لا ينضب ، وبحر يعج بالدرر واللآلئ والأصداف التى تحتاج إلى غواص ماهر كى يستخرج هذه اللآلئ ويفيد منها ويكشف عما يحويه هذا الأدب من ألوان الجمال ، ويقبل عليه عشاق الأدب والباحثون والدارسون الذين لا يعرفون عن العصر الجاهلى إلا أنه مجرد ألفاظ وعرة فى حاجة إلى معاجم اللغة ويقبلون عن جهل على ما يسمى « شعراً حراً أو مرسلاً » وما إلا لأنه يرضى أذواقهم السقيمة ، وخيالهم المريض وثقافتهم الضحلة .

ومن يك ذا فهم مر مريض ... يجـــد مراً به المـــاء الزلالا

وبذات محاولات مضنية للنيل من هذا العصر الذهبى للأدب واللغة ، ووجهت معاول الهدم إليه بشراسة وعنف ، بيد أنهم عادوا خائبين خاسرين المعركة وظل العصر

الجاهلى مطلاً عليهم فى أنفة وشمم وإباء وعظمة وكبرياء وكأنى به يخاطب هؤلاء متمثلاً بقول (حافظ إبراهيم) :

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتى

وقد توالت الحملات على الشعر الجاهلى ، وكان من أظهرها إهمال ذلك الأدب حقبة من الزمن لأنه أدب رفيع ، لا يرضى المولعين بالزخرف اللفظى والذى يوارون وراءه خيالهم السقيم ، وفكرهم الضحل ، وما هى إلا هنيهة حتى وثب النقاد والباحثون للتنبيه إلى ما يحويه هذا العصر من عظمة فنهضوا بنشر كنوزه والعكوف على دراستها والنظر فيها ، مسلطين عليها الأضواء التى تكشف عن معدن هذا الكنز العظيم .

وقد أثيرت ضجة كبرى حول الشعر الجاهلى ، وأنه شعر متحول ، وقاد هذه الضجة الأستاذ الدكتور (طه حسين) ومن قبله أستاذه المستشرق الفرنسى (مرجليوث) بل هو الذى صنعه على عينه ، وجنده للكيد للغة القرآن والإسلام ، وكانت بحق معركة ضارية خاض ميدانها علماء الأزهر الشريف ، ومن سواهم من العلماء والأدباء والنقاد من أمثال الشيخ (الخضر حسين) و (الرافعى) فألفت كتب فى الرد على (طه حسين) ومن يؤازره فى هذه القضية ، وألقيت المحاضرات ونشطت الصحف والمجلات لنشر آراء العلماء حول هذه القضية ، وشغلت الباحثين والدارسين والمحققين ردحًا من الزمن ، ثم هدأت المعركة ، وخبأ أوارها بعد أن انجلت الحقائق وانكشف وجه الحقيقة .

وتلك الحقيقة هى أن الشعر الجاهلى انتظم بعض القصائد والأبيات المنحولة ، والتى دست على بعض شعراء الجاهلية بتأثير العصبيات المقيتة ، وظهور الرواة الوضاعين من أمثال « حماد الراوية » والذى يقول عنه الجاحظ (ومن سوء حظ الكوفة أن كان هذا الراوية البارع فاسد المروءة فاسقًا ماجنًا زنديقًا ، وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر وحوكه)[1] .

---

(١) راجع الحيوان للجاحظ ، جـ٤ ، ص٤١٧ ، والأغانى جـ٦ ، ص٤٠ ، وأمالى المرتضى جـ١ ، ص١٣١ .

ولكن الحق أحق أن يتبع ، فإن الادعاء أو الزعم بأن الشعر الجاهلى كله موضوع فذلك رأى مردود وفيه غبن للشعر وتجن على الشعراء وحكم جائر ، ووجود راوية فاسد المروءة (كحماد عجرد) ليس دليلاً ولا حجة على نحل الشعر الجاهلى كله ، بل إن بعض مقطوعات ، أو أبيات نحلت ووضعت ودست على الشعراء ، ولكن الأغلب الأعم من هذا الشعر هو شعر الشعراء الذين قالوه ، وغير معقول أن يضع الوضاعون هذا التراث الضخم كله ، وفى شتّى الأغراض ، من وصف ، وغزل ، ومديح ، وهجاء ، ورثاء . . فغير معقول أن يتسع باع الوضاعين لكل هذه الأغراض ، وتلك الفنون الجميلة .

وثمة دليل آخر على صحة الشعر الجاهلى ، وهو أن الشعراء الذين قرضوا الشعر الجاهلى ونحلوه كانوا قد عاشوا فى الجاهلية نحو قرنين من الزمان ، ثم عاشوا بعد الجاهلية مثل هذا الزمن ، فهم إذًا أصحاب شذوذ فى أعمارهم وأصحاب شذوذ فى قدرتهم على النتاج ، وهذا فرض خيالى بحت ؛ لأن الرواة معروفو المولد والنشأة[1] .

ونحن نؤيد صدق هذه المقولة ، وبخاصة أن الشعر كان له وزن عظيم فى هذه الحقب ، ومنزلة سامقة للشعراء ، فمن ذا الذى يقرض ذلك الشعر ؟ أو تجود قريحته بذلك الخيال ثم ينسبه بعد ذلك لغيره ؟

ناهيك عن مكان الشعر ؛ ومنزلة الشعراء لدى الناس فى ذلك العصر ؛ إن هو إلا اختلاق ومحض افتراء .

ثم ما نراه فى الشعر الجاهلى من صدق العاطفة ، وحرارة الشعور والواقعية ، كل ذلك يؤكد أن الشعر الجاهلى نتاج قرائح هؤلاء الشعراء ، وأنه غير منحول .

وهل يعقل أنهم قرضوا الشعر بأمزجة الشعراء ووفق أخيلتهم ، ثم نسبوه إليهم ؟ فهذا يتلاءم مع الشاعر عنترة العبسى الفارسى المغوار ، وذاك يناسب صاحب الحكمة « زهير ابن السلمى المزنى » ويوائم الماجن المستهتر (امرؤ القيس) والحمير (الأعشى) ؟

---

(١) أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى د/ أحمد الحوفى ، ص٥ .

فالشعر الجاهلى نتاج هؤلاء الشعراء الذين عرفناهم من أول امرىء القيس إلى آخر شعراء الجاهلية .

وإذا كان الشعراء بدافع العصبية ، والأحزاب السياسية نحلوا الشعر ووضعوه ، فهل يعقل أنهم وضعوا شعر الوصف والحكمة والغزل والرثاء ؟ فهذه الموضوعات لا تصدر إلا عن صدق العاطفة وحرارة الشعور والانفعال بما يقول .

ومن النصفة أن نذكر الرواة الأثبات الذين رووا الشعر الجاهلى كأبى عمرو ابن العلاء وغيره ، ثم عكوف العلماء على دراسة الأصفهانى ، والمرزبانى ، وابن قتيبة ، وابن المعتز ، وغيرهم ممن عنوا بهذا التراث .

والشعر الجاهلى لم يكن يعتمد على الرواية وحدها فى مغالبة الزمن ، ومقاومة عوادى الفناء ، فإن كثرة كاثرة منه كانت تكتب وتدون كما أثبتت ذلك البحوث العلمية ، ومن بينها ذينكم البحث الذى بين أيديكم ونحن نعرف بأن الرواة قد ينسبون بيتًا ، أو أبياتًا ، أو يقدمون بيتًا على آخر ، أو نسب قصيدة إلى غير قائلها ، ولكن ذلك لا يقدح فى صحة الشعر الجاهلى ونسبته لأصحابه ، بل إن اختلاف الروايات يؤكد بلا ريب صحة هذا الشعر ، إذ لو كان موضوعًا كله لجاءت الروايات متحدة ، فاختلاف الرواة دليل حاسم على صحته وأصالته ، فهو شعر صادق الإحساس ، خصب الخيال متقد المشاعر .

وقد ذكر « مروان بن أبى حفصة » أنه دخل هو وجماعة من الشعراء على الوليد ابن يزيد ، وإذا رجل عنده كلما أنشد شعراً ، قال للوليد عند كل بيت هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى أخذه من فلان حتى أتى على أكثر الشعر ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : « حماد الراوية » كذلك قالوا : إن أبا ضمضم كان يروى لمائة شاعر كلهم اسمه « عمرو » وإن الأصمعى وخلفًا الأحمر لم يقدرا أن يعدا أكثر من ثلاثين من هؤلاء[1] .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٦ والعقد الفريد لابن عبد ربه ، جـ٣ ، ص١٠٧ .

وذكروا أن أبا تمام كان يحفظ من أشعار الجاهليين اثنى عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقطعات[1] ، وروى أن الأصمعى كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة ، وذكروا أنه قال : ما بلغت الحلم حتى رويت اثنتى عشر ألف أرجوزة للأعراب[2] ، وهذه الروايات لا تخلو من وجهة نظرنا من المبالغة والتزيد ومع فرض التزيد فيها والمبالغة ، إلا أنها إن دلت فإنما تدل على وفرة ما خلفه الشعراء الجاهليون من شعر غزير وقصائد وأراجيز ومعلقات ما تزال غرة فى جبين الدهر ، وآية من أيات الزمن .

على أن جل الذى قالوه اندثر وانمحى ودرس مع الأطلال ، وتوارى مع الرمال ، ولم يتبق إلا ما أمسكته حوافظ الرواة ، ووعته الأجيال ، يقول ابن سلام : « ومما يدل على ذهاب العلم - يعنى الشعر - وسقوطه ما بأيدى الرواة والمصححين لطرفة وعبيد ، والذى صح لهما قصائد عشر ، وإن لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة »[3] ، وضرب أمثلة على ذلك فقال : « إن أبا سفيان بن الحارث كان يقول الشعر فى الجاهلية ولكنه سقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل »[4] ، ثم يروى عن عمر بن الخطاب أن الشعر كان علم قوم ، ولم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما انتشر الإسلام ، وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب فألقوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم أكثره[5] .

وفى ذلك يقول أبو عمرو بن العلاء « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[6] .

ومما يدل على تقديرهم للشعر والشعراء ، ومكانة الشعر فى نفوسهم أن الشعراء كانوا يذبون الشعر بشعرهم عن قبائلهم ، يمتدحون كرمها ويشيدون بمفاخرها ، ويدفعون

(١) وفيات الأعيان ٢/ ١٢١ .
(٢) ذاته ، ص٢٨ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ٣/ ١٠٨ .
(٣) طبقات فحول الشعراء ابن سلام ، ص٢٣ .
(٤) ذاته .
(٥) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ، ص٣٢ .
(٦) الخصائص لابن جنى ١/ ٣٩٢ .

ألسن الشعراء إن حدثتهم أنفسهم للنيل منها ، فكان الشعراء بالنسبة للقبائل كالصحف الحزبية فى عصرنا الحاضر ، بيد أن هذا وهذه مهاترات سياسية لا جدوى منها ، ولا فائدة من ورائها .

كما كان بوسع هؤلاء الشعراء أن يضعوا بشعرهم الغالى القدر الرفيع المنزلة ، ويرفعوا الخامل الذكر بمديحهم إلى السماك الأعزل ، كما فعل « الأعشى » مع المحلق حين قال :

نفى الذم من آل المحلق خفته ... كجابية الشيخ العراقى تفهق
لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلق
ترى الجود يجرى فوق وجهه ... كما زان متن الهندوانى رونق[1]

وكما فعل « الحطيئة » مع بنى أنف الناقة ، وكانوا يعيرون بهذا الاسم فجعله الحطيئة لقب شرف وفخار ، حيث قال :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فرفع هذا البيت نقيصتهم ، ورفع قدرهم ، وكما فعل الشاعر « حسان بن ثابت » مع بنى « عبد المدان » حيث هجاهم بعظم الأجسام ، وصغر العقول ، فقال :

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر ... جسم البغال وأحلام العصافير

وبالشعر نادم الشعراء الملوك ، وتبوءوا منازل رفيعة لديهم ، وكانت لهم الصدارة فى مجالسهم ، وهذا البحث الذى وفقنى الله لكتابته ، سجلت فيه أفكارًا ، وناقشت بعض القضايا الهامة ، وبحق لقد كانت تلك القضايا تجول بخاطرى ، وتداعب فكرى من أمد بعيد ، وبت أحلم بتسجيلها وكتابتها وتبويبها ، وتصنيفها حتى تأذَّن المولى تبارك وتعالى فشرعت اليراع ومضيت فى مهمتى المضنية راجيًا من الله التوفيق والرشد ، وأن يهدينى سواء السبيل .

د/ على الخطيب

---

(١) العمدة لابن رشيق ١/ ٢٥ .

كلمة أدب وأطوارها

للفنون الأدبية رسالتها الرائدة فى المجتمعات الإنسانية منذ نشأتها فى أقدم العصور، فهى صانعة الحياة التى يتوق إليها الباحثون عن السعادة فى عالمىّ المحسوس والشعور، وهى رجع الصَّدى لما تتلقفه النفوس من همسات الطبيعة، وأسرار الكون، بل هى فى حقيقة أمرها إضافات جليلة الخطر فى نطاق الإحساس والمشاهدة حين يَعِنُّ للطبيعة ألا تقدم لنا صورة كاملة عن إحساس أو مشاهد.

ولعظمة تلك الرسالة الفنية، نشط المفكرون والنقاد منذ أقدم العصور إلى تفهم طبيعتها، وتحديد أهدافها، وضبط اتجاهاتها، فاستقام لهؤلاء وأولئك من هذا النشاط دراسات نقدية ترتكز على الفلسفة حينًا، وعلى الذوق أحيانًا، ولهذا ضمّت ألوانًا متباينة، وضروبًا مختلفة من مناهج التفكير، ولفتات المشاعر مما قد نقف اتجاهه أحيانًا حائرين أو مضطربين؛ لأنها تقدم لنا ثمرات فكرية وشعورية متنوعة الألوان والطُّعوم.

وكلمة أدب متعددة المعانى.

فيقول صاحب اللسان: «الأدب هو الذى يتأدب به الأديب من الناس، وسمّى «أدبًا» لأنه يَأدب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح، وأصل «الأَدْبُ» بإسكان الدَّال، الدُّعاء، و«الأدب» هو الظرف وحسن التناول، وأُدُبَ «بضم الدال»: فهو أديب أى من قوم أُدَبَاء، وأدَّبَه فتأدَّب: يعنى «عَلَّمَه» واستعمله «الزَّجَّاج» فى الله عز وجل فقال: «وهو ما أدّب الله تعالى به نبيَّه ﷺ - وفلان قد استأدب بمعنى تأدَّب، والأُدْبَة، والمأدَبَة والمأدُبة «بفتح الدَّال وضمها»: «كل طعام صنع لدعوة أو عُرْسٍ يقول الشاعر: «ضحر الغىّ»: يصف عُقَابًا:

كأن قلوب الطير فى مَعرعشّها ... نوى القسب ملقّى عند بعض المآدب

والقسب : تمر يابس ، صلب النوى ، كما شبهه « امرؤ القيس » بالعُنَّاب فى قوله :

كأن قلوب الطير رطبـًا ويابسـًا لدى وكرها العُنَّاب والحشف البالى

والمشهور فى المأدُبَة ضم الدَّال ، وأجاز بعضهم الفتح وقال هى بالفتح « مفعلة من الأدب » .

وفى الحديث[1] عن ابن مسعود - رضى الله عنه - : « إن هذا القرآن مَأدَبَة الله فى الأرض فتعلموا من مَأدَبَته » فمن قال « مأدُبَة » بضم الدَّال « أراد به الصنيع يصنعه الرجل فيدعو إليه الناس ، وتأويل الحديث أنه شبه القرآن بصنيع صنعه الله للناس فيه خير ومنافع ثم دعاهم إليه ، ومَنْ قال « مأدَبَة » بفتح الدال جعله مفعله من الأدب ، وكان «الأحمر» يجعلهما لغتين - مأدُبَة بضم الدال ، ومأدَبَة بفتح الدال بمعنى واحد[2] .

وقد تنقلت كلمة « أدب » من معنى إلى معنى متدرجة مع الزمن عبر الحقب ، وعما يتفرع منها مثل « مؤدب وأديب » وقد ترجح لديهم أن أوَّل ما ورد من هذه المادة كلمة «أدَبَ» بمعنى « دعا » إلى طعام ، **أدْب** . بفتح الهمزة وإسكان الدَّال بمعنى الدعوة إلى الطعام ، « مَأدُبَة » بإسكان الهمزة وضم الدَّال ، وهو الطعام المدعوّ إليه ، « آدِبْ » بكسر الدَّال . . وهو اسم فاعل من ذلك .

يقول « طرفة بن العبد البكرى » :

نحن فى المشتات ندعو الجفلى لا ترى الآدِب فينا ينتقر

والمعنى أننا فى زمن الشتاء ، وقساوة البرد ندعو الناس عامّة إلى طعامنا ، ولا نتخير بعضهم ونترك الآخرين .

ويقول صاحب « العقد الفريد »[3] فى حديثه عن وفود العرب لدى « كسرى أنو شروان » أن « علقمة بن علاثة » وهو خطيب وفد « النعمان بن المنذر » ملك « الحيرة »

---

(١) محاضرات فى الأدب والبلاغة/ لأستاذنا المرحوم الشيخ الدكتور/ حسن الظواهرى ، ص٦ ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة .

(٢) لسان العرب لابن منظور - المجلد الأول - ط دار المعارف ، ص٤٣ .

(٣) العقد الفريد / لابن عبد ربه .

إلى « كسرى أنو شروان » وكان قد أعجب بهم ، وبحسن تأتّيهم للكلام ، وتخلّصهم فى المواقف الحرجة ببيانهم الساحر .

يقول « علقمة بن علاثة » : « ليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب ، كلهم إلى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأى الفاضل والأدب معروف » . وجاء فى كتاب « النعمان » إلى « كسرى أنو شروان » : « وقد أوفدت أيها الملك رهطًا من العرب لهم فضل فى أحسابهم وعقولهم وآدابهم ، فنرى كلمة « **وآدابهم** » تحمل هنا معنى رفعة القدر ، وعلوّ الشأن ، والظرف ، وحسن التناول .

وفى حديث « أبى علىّ القالى » عن « عتبة بن ربيعة ، وابنته هند » ، حيث قالت هند لأبيها « عتبة بن ربيعة » : إنى امرأة قد ملكت أمرى فلا تزوجنى رجلاً حتى تعرضه علىّ ، قال لك ذاك ، فقال لها ذات يَوم إنه قد خطبك رجلان من قومك ولست مسمِّيًا لك واحداً منهما حتى أصفه لك ، أما الأول : ففى الشرف الصَّميم ، والحسب الكريم ، تخالين به هوجًا من غفلته ، وذلك إسجاح من شمته ، حسن الصَّحابة ، سريع الإجابة ، إن تابعته تبعك ، وإن ملْت كان معك ، تقضين عليه فى ماله ، وتكتفين برأيك عن مشورتَه ، وأما الآخر : ففى الحسب الحسيب ، والرأى الأريب ، بَدْر أرومته ، وعز عشيرته يؤدب أهله ولا يؤدبونه ، إن اتّبعوه أسهل بهم وإن جانبوه توعّر عليهم ، شديد الغيرة ، سريع الطيرة ، صَعْب حجاب القبَّة ، إن حاجّ فغير متزور ، وإن نوزع فغير مقهور ، وقد بيِّنت لك كليهما ، فقالت : أما الأوَّل فَسيِّد مضياع لكريمته مُوات لها فيما عسى أن تعتص أن تلينَ بعد إنها ، وتضيع تحت خبائها ، إن جاءته بولد أحمقَت ، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت ، اطو ذكر هذا عنى ولا تُسمَّ لى ، وأما الآخر فبعل الحرَّة الكريمة ، إنى لأخلاق هذا لواقعة ، وإنى له لموافقة ، وإن لآخذة بأدب البعل مع لزومى قبَّتى ، وقلة تلفتى[1] .

ونرى الكلمة هنا بمعنى التهذيب والرياضة المحمودة مع التخلق بالأخلاق الكريمة ، حتى كان عصر صدر الإسلام فقد أثر عن الرسول - عليه السلام - أنه استعملها بمعنى

(١) الأمالى/ لأبى على القالى ، ص١٠٤ ، المجلد الأول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

التهذيب والتعليم ، ومعرفة كلام العرب فيروى أن وفود العرب وفدت على الرسول - عليه السلام - من مختلف جهات الجزيرة العربية فكان يسمع منهم ويخاطبهم بلغتهم فدهش لذلك « على بن أبى طالب » كرم الله وجهه ، وقال يا رسول الله : « نحن بنو أب واحد ونراك تكلم الوفود بما لا تعلم أكثر ، فرد عليه الرسول - عليه السلام - بكلمته المشهورة : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى بيد أنى من قريش وربيت فى بنى سعد » . وكأن الصلة بينها وبين مادتها أن الأدب يدعو صاحبه إلى الصفات الحميدة ، وأصل معنى مادة الأدب هو « الدعوة » .

ومرَّ الزمن والكلمة لا تخرج عن هذا المعنى حتى كان عصر بنى أمية ، فنقلت كتب الأدب أن الخلفاء والأمراء كانوا يبعثون فى طلب الأئمة من الرواة والعلماء يشخصونهم لأبنائهم ، يروونهم الشعر ، والأخبار ، ويعلمونهم اللغة والدين ، وكانوا يسمونهم المؤدبين . فقد حكى عن « عمر بن عبد العزيز » أنه قال لمؤدبه حين جاءه يبايعه بالخلافة : « كيف كانت طاعتى إياك وأنت تؤدبنى » فقال : أحسن طاعة ، قال عمر بن عبد العزيز له : « فأطعنى الآن ، كما كنت أطيعك » .

ومن ذلك نرى أن كلمة « أدب » قد أضيف إلى مفهومها تعلّم الشعر والأخبار ، والتبصير بأصول السنن ، وتأويل القرآن الكريم ، وتولَّد منها بهذا المعنى : « مأدب ، وتأديب » .

ثم استحدثت العلوم ، وترجمت الكتب ونقلت آثار الأمم السابقة إلى العربية فى عصر التدوين أيام العباسيين فأخذت كلمة « الأدب » تنحرف عن هذا المعنى ، واستعملت حينئذ فيما أنتجته قرائح المتكلمين بهذه اللغة من مأثور الشعر والنثر ، والحكمة والمثل ، ووضعت آنذاك كتب درج الناس على أن يسموها « كتب الأدب » ثم أضيف إليها علوم لسانية أخرى مثل « النحو ، والتصريف ، والعروض ، وأصول البلاغة » .

حتى إذا كان القرن الماضى وأحدث المستشرقون « علم تاريخ الأدب » على هذا النحو من البحث والتبويب ، وتلك الصورة من التقسيم إلى أعصر متعاقبة ، والعناية الفائقة بنقد الآثار الأدبية ، وعقد الموازنات بينها فنرى تلك الكلمة قد استقلت بمعنى

«المأثور» من الشعر والنثر ، وما يتصل بهما ويحتاج فى فهمهما ، ونقدهما وتعليل رقيّهما ، أو انحطاطهما ، وأصبح النحوىّ لا يستطيع أن يسمى نفسه « أديبًا » ، ولا العالم بأصول البلاغة والعروض وإن كان لا ندحة للأديب فى ثقافته العامة من معرفة هذه العلوم وغيرها ليكون آخذًا من كل فنٍ بطرف .

إلى هنا نستطيع أن نتحدث عن كلمة « أديب » ، وقد علمنا أن الباحثين لم يعثروا على نصّ صحيح قبل الإسلام ، وقيل « سالم بن وابصة الأسدى » و« مزاحم العقيلى » وهما إسلاميان تكون قد وردت فيه هذه الكلمة . وقد ذكر صاحب « الحماسة » فيما رواه « السالم بن وابصة الأسدى » من قصيدته التى مطلعها :

أحسب الفتى ينفى الفواحش سمه ... كأن به عن كل فاحشة وقرًا

إذا شئت أن تدعى كريمًا مكرمًا ... أديبًا ظريفًا عاقلاً ماجدًا حرًا

إذا ما أتت من صاحب لك ذلة ... فكن أنت محتالاً لذلته عذرًا

وروى صاحب اللسان فى مادة « أدب » قول « مزاحم العقيلى » : من صفة الإبل :

وهُنَّ يصرفن النوى من بين عالج ... ونجران تصريف الأديب المذلل

وعالج ونجران « موضعان » والمذلل « هو المروّض المهذب » ؛ فهذه الكلمة وإن كانت فى الأول « صفة للإنسان » وفى الثانى « صفة للبعير » إلا أنها فى كليهما لا يخرج معناها عن التهذيب والرياضة ، ثم فشت الكلمة بعد ذلك ، واقتصرت على هذا المعنى حينًا من الدهر ، ثم انتقلت هذه الكلمة إلى معنى « الأخذ من كل فنٍ بطرف » وبذلك تساوت مع كلمة « مثقف » وكذلك كلمة « التثقيف » ، « الثقافة » تتساويان مع كلمتىّ «تأديب» ، « أدب » بمعناه العام ، الذى هو الأخذ من كل فنٍ بطرف مما يتعلق بشئون الحياة والانتفاع به فيها ، وأما الأدب بمعناه الخاص الذى هو جيد الكلام المأثور ، من منظوم ومنثور ، وما يتعلق بهما من علوم لغوية ، فالثقافة أعمّ وأشمل[1] .

(١) محاضرات فى الأدب والبلاغة/ للشيخ الدكتور/ حسن الظواهرى ، المرجع السابق ، ص٧ ، ٨ . بتصرف .

تمهـــيد

« المجتمع الجاهلى »

الجزيرة العربية رحبة واسعة مختلفة المناخ ، فيها المنطقة الصحراوية الجبلية المرتفعة ذات الأغوار المنخفضة الشديدة الحرارة ، وفيها الجبال الشاهقة ذات القمم التى ربما تتوجها الثلوج ، وفيها الأغوار والجبال والمناطق الرملية الكثيرة المخاوف ، وفيها مناطق عرفت بالجدب الذى يدفع العربى إلى الهجرة والتنقل وعدم الاستقرار ، وليس فى خريطة الأرض شبه جزيرة تضاهيها حجمًا ، فهى أكبر من شبه جزيرة الهند ، ومساحتها ثمانية أضعاف الجزر البريطانية ، وأربعة أضعاف فرنسا ، وهى تعادل ربع أوربا ، أو ثلث الولايات المتحدة الأمريكية مساحة[1] .

إذًا فإن موطن العرب ممتد فى رقعة شاسعة ، وهى ذات بقاع وأماكن متباينة ، مختلف البيئات ، كل ذلك يجعل من الجزيرة العربية مواطن متعددة ، وإن كانت مع كل ذلك وطنًا واحدًا متماسك العرى قوى الوشائج والأمشاج فما بين البحر الهندى فى أقصى الجنوب إلى ما بعد دمشق فى أقصى الشمال ، وما بين بحر فارس ، ونهرى دجلة والفرات فى الشرق إلى البحر الأحمر بل إلى نهر النيل فى الغرب كانت نسيج هذه الأمة العريقة فى الأغوار والأنجاد ، وفى السهول وفوق قُنن الجبال ، وفى أجواف الصحارى ، وعلى سواحل البحار ، وأمرًا طبعيًا أن يختلف مناخها تبعًا لرقعتها المترامية الأطراف ، واختلاف طبيعة أرضها ، ففيها شواظ من لهيب الحر يشوى الوجوه وسموم تلوّح الأبدان ، وثلوج تتوج قمم الجبال وصقيع يجمد الدم فى الأطراف ، وفيها مع

---

(١) من الظواهر الفنية د/ سعد ظلام ، ص٣٠ ، ومصادر الشعر الجاهلى د/ ناصر الدين الأسد ، ص١ ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٥٦م .

ذلك كله مناخ معتدل دافىء ، وفيها أيضًا أمطار غزار تجرف أمامها كل شىء كما نرى بعض الأماكن التى يحتبس عنها الماء ، وبعض الأماكن خصبة تغرى بالإقامة والسكنى .

ذلك التضاد الجغرافى كان له كبير فى خُلق العربى وسلوكه نشهد ذلك فى مبالغة البدوى فى الخير والشر ، فهو يسرف فى الحب ، كما أنه يسرف فى البغضاء والعداوة ، فهو لا يعرف قصدًا أو اعتدالاً ، فهو خائن غادر حينًا ويجود بروحه وفاء وكرمًا ونبلاً فى حين آخر .

تلك الطبيعة غير المستقرة فرضت على العرب عدم الاستقرار ، ولذلك نراهم احتقروا الزراعة والصناعة وعدوها معاشًا للضعفاء ، وانصرفوا إلى القنص ، والصيد والتجارة والرعى ، فهذه الأشياء من وجهة نظرهم تليق بالنبلاء والشرفاء .

وفى هذه الصحراء الشاسعة نرى القبائل العربية موزعة بين ربوعها المترامية الأطراف فمن كان يسكن المدن والقرى يسمى « حضرى » ومن يسكن البادية يسمى «بدوى» ولكل منهما أسلوبه وحياته الخاصة به ، والتى أملتها عليه ظروف بيئته التى يعيش فى كنفها ، فالحضر وهم سكان المدن والقرى كانوا يعيشون على موارد ثابتة من الرزق كالزراعة والتجارة ، فالزراعة تزدهر حيث الأرض الخصبة والمياه الغزيرة اللازمة للإنبات والزرع والسقى والاستثمار ، وهذه توجد فى الجهات التى تسقط فيها الأمطار بكثرة ، أو تفيض فيها العيون والآبار بوفرة ، وهذه الأماكن توجد فى الجنوب والشرق وواحات الحجاز مثل « يثرب » و « الطائف » و « وادى القرى » و « دومة الجندل » و«تبوك» و « خيبر » و « تيماء » وقد كانت اليمن جنة وارفة الظلال ، وذكر أصحاب التاريخ القديم أن أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها وأكثرها جنانًا وغيطانًا ، وأفسحها مروجًا مع بنيان حسن وشجر مصفوف ، ومساكب للماء متكاثفة ، وأنهار متفرقة »[1] ، وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب المجد ، وفى العرض مثل ذلك ، وكان الراكب والمار يسير فى تلك الجنان من أولها إلى أن ينتهى إلى آخرها لا تواجهه

(١) مروج الذهب للمسعودى تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد ، جـ٢ ، ص١٧٠ وما بعدها ، ط ، دار المعارف ، بيروت ، لبنان .

الشمس ولا تعارضه ، لاستتار الأرض بالعمارة الشجرية ، واستيلائها عليها ، وإحاطتها بها ، وكان أهلها فى أطيب عيش وأرفهه ، وأهنأ حال ، وأرغد قرى ، وفى نهاية الخصب وطيب الهواء وصفاء الفضاء ، وتدفق الماء ، وكانت بلادهم فى الأرض مثلاً ، وكانت المياه التى هى أكثر ما يرد إلى أرض (سبأ) تظهر من مخراق من الحجر الصلد والحديد من ذلك السد والجبال ، وكان وراء السد والجبال أنهار عظام[1] .

وكان فى هذا المخراق الآخد من تلك الأنهار ثلاثون نقبًا مستديرة فى استدارة الزراع طولاً وعرضًا مدورة على أحسن هندسة ، وأكمل تقدير وكانت المياه تخرج من تلك الأثقاب فى مجاريها حتى تأتى فترويها سقيًا ، وتعم شرب القوم ، وكانت أرض سبأ قبل ما وصفناه من العمارة والخصب يركبها السيل من تلك المياه[2] . لهذا أجمع المؤرخون على امتداح غنى اليمن وسموها بالأرض السعيدة .

وها هو ذا القرآن الكريم يخاطبهم بما كانوا يرفلون فيه من بلهنية العيش ورغد الحياة، يقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[3] .

وأما البدو فكانوا يكونون غالبية السكان ، وهم قبائل متفرقة متناثرة فى ربوع الصحراء الشاسعة المترامية الأطراف والتى تشتهر بالمحل والقحط والشظف وضنك العيش والجدب[4] . وليست فيها من الزراعة سوى ما ينبته الغيث من حشائش وكلأ ؛ مما جعلهم يعتمدون على الحيوانات فيصطادون بعضها وشوونه ويأكلونه ، ومن أهم الحيوانات : الإبل والخيل والماعز والغنم ، أما الإبل والضأن فكانوا يتخذون من أوبارها وأشعارها أثاثًا لبيوتهم ، ولباسًا يقيهم الحر والبرد ، كما أنهم اعتمدوا على الخيل فى السلم والحرب فهم يصيدون بها الحيوانات للطعام والغذاء ، ويغيرون بها أيضًا على الأعداء ، فهى وسيلة قتال فى الحرب ، ووسيلة للحصول على ما يقتاتون به فى السلم،

(١) مروج الذهب للمسعودى تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد ، جـ٢ ، ص١٧٠ وما بعدها ، ط ، دار المعارف ، بيروت ، لبنان .

(٢) ذاته .

(٣) سورة سبأ ، الآية ١٥ .

(٤) مروج الذهب للمسعود ، جـ٢ ، ص٦٢ .

وما كان البدوى يفكر فى الاشتغال بمورد ثابت بربطه بمكان لا يبرحه طول حياته ، وتستره حيطانه عن نور الفضاء ، واتساعه الفسيح الأرجاء ، ومن ثم أنف الاشتغال بالزراعة أو الصناعة فتركوا ذلك لغيرهم ممن كانوا يعدونهم أقل من البدو وأنفة وكبرياء ، وكان مبدأ العربى « الذل بالحراث » والمهانة بالبقر ، والعز بالإبل والشجاعة بالخيل»[1]، ولهذا تمسك البدوى بالصحراء لأنهم يرون فيها حرية وانطلاقًا يتنسمون هواءها العليل ونسيمها البليل ، فهم مطبوعون على الحرية ، يأنفون الذل والقيود ، ولكن الفقر والمحل والقحط يضرب طنبه عليهم من كل المناحى ، ويحيط بهم من شتى النواحى ، ولذلك انتشر بينهم اليأس والفقر والبؤس ، ولم يكن فيما بينهم غنى يأخذ بيد فقيرهم ، فالأغنياء قلة قليلة والسواد الأعظيم يعيشون فى كنف فقر مدقع .

من هنا شاع النهب والسلب ، وظهر بينهم قطاع الطرق الذين اتخذوا من الإغارة على الأغنياء وسيلة لمعاشهم وبخاصة فى متاهات الصحراء ، وأصبحت شريعتهم كشريعة الغاب ، ولهذا نشأت وتكونت فرقة الصعاليك بقيادة زعيمهم الشاعر « عروة ابن الورد »[2] .

ومما كان له أثر كبير فى موارد الرزق ومعيشة العرب جميعًا ، الحضر منهم والبدو ، تبادل السلع والبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ولذلك كانت لهم أسواق كثيرة ، منها ما كانت ثابتة مع أيام السنة ، ومنها ما كانت موسمية تعقد فى مواسم معينة فإذا انتهى الموسم انفضت ، وهذه جعلوها فى أماكن متفرقة فى أنحاء شبه الجزيرة حتى تنال كل بقعة منها ، ولا يحرم بعض السكان من وجود هذه الأسواق فى ديارهم كما جعلوا لكل منها وقتًا خاصًا بحيث لا يتعارض بعضها مع بعض ليستطيع كل من شاء أن يحضر جميع هذه الأسواق دون أن تفوته واحدة منها ، وقد ذكر « الألوسى » الكثير من هذه الأسواق ومواقيتها ، ومن هذه الأسواق « دومة الجندل » ، وسوق « هجر » بالبحرين « وعمان »

---

(١) تاريخ الأدب العربى للمستشرق بلاشين ، ص٣٢ ، وأيضًا تاريخ الأدب الجاهلى د/ على الجندى ، ص٥٩ ، ط دار المعارف .

(٢) الصعلوك هو الفقير ، ويقول ابن سيده : الصعلوك هو الذى لا مال له ، وفى مختار الصحاح الصعلوك : الفقير ، والتصعلك : الفقر .

« المشفر » (وسحار) و (الشحر) وعدن و (صنعاء) وذى المجاز ، وعكاظ[1] . والمجتمع الجاهلى بوجه عام مجتمع قبلى ، وحدته الاجتماعية القبلية والشائع المتعارف أن القبيلة كانت فى الجاهلية جماعات من الأعراب البدائيين الذين يسكنون الخيام ، ويقطنون الصحراء حيث لا هم لهم إلا الغزو وانتجاع الطلأ ، وقد يصدق ذلك على بعض تلك القبائل أو على أقسام منها ، بيد أن بعضًا من هذه القبائل كان يقطن القرى والحواضر ، فالأوس والخزرج كانتا تسكنان المدينة ، وثقيف تقيد بالطائف ، وقريش فى «البطاح» أى كانت تسكن بطحاء مكة ، وثعلب وبكر وإياد ، كان بعضها حاضرة تسكن الجزيرة وما بين النهرين ، وبعض القبائل كان يسكن قرى « اليمامة » واليمن فهذه قبائل كانت مستقرة لا يفزعها القلق ، ولا ينتابها الانتجاع والرحلة[2] ؛ ولذلك قالوا : « قريش الأباطح » أشرف وأكرم من (قريش الظواهر) لأن البطحاءين من قريش حاضرة ، وهم قطان الحرم والظواهر ، أعراب بادية ، وضاحية كل بلد ناحيتها البارزة[3] ، فنرى أن القبيلة الواحدة مختلفة فى الحياة ، فبعضها يحيا حياة متمدنة متحضرة مستقرة ، وبعضها الآخر يظل باديًا فى أهل الوتد . وقد كان هذا شأن القبيلة فى الجاهلية والإسلام معًا .

وأصدق دليل على ذلك قبيلة (جهينة) فقد كان قسم منها يسكن فى (الوبر) دون (المدر) فى نواحى جبلى (رضوى) و (عزور) بينما يسكن قسم آخر منها فى (المدر) فى (ينبع) وهى قرية كبيرة غناء فيها عنون عذاب غزيرة المياه ، ويسكن قسم ثالث منها فى (الصفراء) وهى قرية كثيرة النخل والمزارع ، وماؤها عيون كلها ، وهى فوق (ينبع) مما يلى المدينة ، وماؤها يجرى إلى (ينبع)[4] ومثال آخر قبيلة (نهد) كانت تسكن فى (الوبر) دون (المدر) فى جبلى (رضوى) و (عزور) وكان قسم منها يسكن فى قرية (الصفراء)[5] . من ذلك نستطيع أن نقول إن العرب فى الجاهلية يكونوا مجتمعًا واحدًا ، بل كانوا طبقات اجتماعية متباينة ، وهى :

(١) بلوغ الأدب للألوهى ، جـ١ ، ص٢٦٥ وتاريخ اليعقوبى ، جـ١ ، ص٧٠ .
(٢) مصادر الشعر الجاهلى د/ ناصر الدين الأسد ، ص٢٦٥ بتصرف .
(٣) لسان العرب لابن منظور ضحان .
(٤) ذاته ، ص٦ ، المصادر .
(٥) ذاته ، ص٦ ، مرجع سابق .

أولاً : طبقة الأحرار الصرحاء : وهم أبناء القبيلة الذين ينتمون إلى أب واحد ، ويجرى فى عروقهم الدم العربى الخالص الذى لا تشوبه شائبة ، ومن هؤلاء تتكون الطبقة الأرستقراطية فى القبيلة .

ثانيًا : طبقة الموالى : وهم العتقاء من العبيد ، أو الأحرار الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ، ولجأوا إلى القبيلة ليعيشوا فى كنفها وحمايتها ، ومكانة هذه الطبقة وسط بين الأحرار والعبيد .

ثالثًا : طبقة العبيد : وهم الأسرى الذين يقعون فى يد القبيلة عند حروبها أو الرقيق المجلوب من البلاد الأجنبية وبخاصة من الحبشة[1] ، وتلك الطبقة من أسوأ الطبقات ، وقد كانت أسرع الطبقات استجابة للدعوة الإسلامية .

ونحن نرى أن الدافع لهم إلى اعتناق الإسلام دينًا وسرعة استجابتهم للدعوة الإسلامية ، ما وجدوه فى الإسلام من حرية ، وراحة نفسية ، حيث إن الإسلام دين يسوى بين الأحرار والعبيد ، والأغنياء والفقراء والذكور والإناث فى مجال العمل الصالح وتقوى الله ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[2] .

وقول الرسول عليه السلام : «**أكرم الناس أتقاهم**» . وقوله صلّى الله عليه وسلم : «**لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى**» ، وقوله سبحانه :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾[3] .

فوجدوا فى ذلك الهدوء والسكينة والراحة النفسية التى ينشدها الإنسان فى كل عصر ، ناهيك عن العدل الاجتماعى والمساواة ، فرفعهم الإسلام بهذه المعانى من الحضيض الأسفل ، إلى السماك الأعزل ، ومع هذا فقد كان هناك اتحادات تجمع القبائل ، وتربط بينهما بما يسمى (الحلف) حيث كانت القبائل الضعيفة تحالف القبائل القوية ، وكان لهم مجلس يجمعهم جميعًا يسمى (الندوة) يضم شيوخ العشائر .

(١) من الظواهر الفنية ، د/ سعد ظلام ، ص٣٣ .

(٢) سورة الحجرات ، آية ١٣ . (٣) سورة آل عمران ، آية ١٩٥ .

وكان العرب فى الجاهلية يتصل بعضهم كما كان لهم اتصالهم الخارجى بمن جاورهم من الأمم ، فبجانب المجالس الخاصة التى كانت تعقدها القبيلة لبحث أمورها واستماع الآراء حول ما يعن لهما ويهمها ، كانت هناك مجالس السمر واللهو ترويحًا عن النفس وتخفيفًا من العناء الذى يكابدونه ، ورغبة فى التسلية ، ويكون ذلك بسماع الطرف الأدبية ، والأحاديث ، والحكايات والقصص .

هذا كله بجانب الموسيقى والرقص والغناء ، كما كانت هناك اتصالات على مستوى أوسع وأشمل ، تلك التى تجمع العديد من القبائل ، والتى تربط بينها صلات الود والمحبة والمصاهرة والجوار ، وكذلك كانت لهم اتصالات واسعة بعضهم مع بعض تلك التى تجمعهم فى مناسبات عامة وعلى نطاق واسع كالأسواق ، وموسم الحج ، حيث إن فيها مجالاً للتعارف وتوثيق عرى الروابط والصداقة وتبادل الآراء والوقوف على ما يعن لهم من المشكلات ، ومعرفة الميول والاتجاهات ، فلم يكن الجاهلى بمعزل عن العالم فهو فى مسيس الحاجة إليه كما أن العالم المتاخم له فى حاجة إليه ، فكان لزامًا أن يتصل العرب الجاهليون بغيرهم من الأمم المجاورة ، وكذلك تتصل الأمم بهم حيث تبادل المنافع والمصالح المشتركة بين الجانبين .

كما أننا نرى تبادلاً تجاريًا بين العرب فى الجاهلية ومن جاورهم ، ومن ثم نشطت الحركة التجارية فى شبه الجزيرة العربية منذ القدم ، كما وجدت مراكز تجارية هامة فى الشمال والجنوب ، والوسط والشاطئ ، وعبرتها القوافل التجارية صيفًا وشتاء تنقل حاصلات اليمن وغيرها من البلاد العربية وتجارات الهند والحبشة والشام إلى شبه الجزيرة العربية وخارجها ، وبالعكس فكانوا ينقلون من اليمن وحوض المحيط الهندى وأفريقيا الشرقية : (اللبان ، والطيب ، والبخور والجلود ، وثياب (عدن) النفيسة ، وتوابل الهند ، ورقيق أفريقيا ، والصمغ والعاج) وكانوا ينقلون الزيت من الطائف . . . كل ذلك كانوا ينقلونه إلى حوض البحر المتوسط ويعودون محملين بالأسلحة والقمح والزيت والخمر والثياب القطنية والكتانية والحريرية)[1] ، وكان أمرًا طبيعيًا أن تكون هذه القوافل فى حاجة إلى من يقوم بحمايتها من الأعداء وقطاع الطريق ، لذلك نشأت صلات وطيدة بين العرب وهذه الأمم وبخاصة (الحبشة والروم ، والفرس ، والهند)

(١) دائرة المعارف الإسلامية « مكة » .

وقوى ذلك الاتصال وجود إمارات قريبة فى (الحيرة ، وغسان ، ونجد) وكان حكام المناذرة والغسانيين وكندة بحكم عروبتهم لهم صلة متينة وقوية بالعرب الجاهليين ، ومملكتى الأكاسرة والقياصرة .

ولا ريب فى أن هذه الاتصالات والصلات كان لها كبير الأثر الأثر فى حياة العرب الجاهليين ، ولغتهم ، وآدابهم ، فمع دخول التجارة دخلت ألفاظ وأسماء كثيرة .

ويقول المستشرق (بلاشير) وقد حمل التجار معهم شيئًا أهم وأعظم قيمة من التجارة هو (حروف الهجاء) الحروف التى أخذ منها الخط الذى كتب به القرآن الكريم ، فصار الخط الرسمى للمسلمين ، والخط الذى لم يقتصر استعماله على العرب ، بل صار خطًا لملايين المسلمين الذين تربطهم رابطة الدين[1] .

وكان أمرًا طبيعيًا أن يكون للرحلة أثر كبير فى الأدب العربى وبخاصة فى الشعر والشعراء حيث وقعت أعينهم على التمدن والحضارة التى تعيش فيها هذه الأمم ، ولابد أن يكون لذلك أثر فى حياتهم وفكرهم ، وبخاصة فى الأدب كما أومأنا إلى ذلك آنفًا .

هذا إلى جانب الرقيق ، والذى كان بضاعة ضرورية لدى أهل المال ، والثراء ، فهى تدر عليهم أرباحًا طائلة ، كما أنهم كانوا سلاحًا يستخدم للدفاع عن السادة الأثرياء فى السلم والحرب ، فكان هناك رقيق أبيض ، وآخر أسود ، اشتراهم أهل مكة للعمل فى مختلف الأعمال ولخدمتهم ، والأسرى البيض الذين كانوا يقعون فى أيدى الفرس ويباعون فى سوق « النخاسة » ومنهم من ينقل إلى مختلف أنحاء الجزيرة ، بالإضافة إلى الرقيق المجلوب من أسواق أوربا لبيعه فى أسواق الشرق ، ومثل هذه البضاعة لابد أن تترك أثرًا فى البيئة التى استوردت إليها[2] .

ولذلك كان من الإخلال الفاضح بالمنهج السديد أن ينظر إلى العصر الجاهلى نظرة واحدة ، وأن يحكم عليه حكم عام مطلق ، وأن نوصم عرب الجاهلية جميعًا بالبداوة والجهالة ، فلا تراعى الفروق الواسعة فى البيئات الاجتماعية المتباينة ، فإن صح أن بعض الأعراب فى صحروات الجزيرة كانوا فى معزل عن العالم المتمدن آنذاك ، فإنه من

---

(١) تاريخ الأدب العربى للمستشرق بلاشير ، ص٦٢ .

(٢) تاريخ الأدب العربى قبل الإسلام د/ جواد على ، جـ٤ ، ص١٩٨ وما بعدها بتصرف .

الصحيح كذلك أن بعض البيئات الاجتماعية الأخرى كانت متصلة بمعالم المدنية لذلك العهد مواكبة لركب الحضارة[1] .

وقد أشار كثير من المعنيين بالدراسات الشرقية من الأوربيين إلى هذه الحضارة العربية القديمة بعد استقراء النقوش واستنطاق الآثار ، فقال المستشرق « ونكار » إن تاريخ الجزيرة العربية كما توضحه النقوش يظهر لنا مجموعة من الحكومات والدول المنظمة منذ أقدم القدم ، وقال (سايس) : « لم يكن المسلمون الذين انطلقوا من الجزيرة العربية ، وفتحوا العالم المسيحى وأسسوا الممالك ، إلا من نسل أولئك الذين كان لهم فى القدم أثر عميق فى مصير الشرق » .

وقال « هومل » : « إن الحضارة العربية الجنوبية بآلهتها ومذابحها ذات البخور ، ونقوشها وحصونها ، وقلاعها ، لابد أن تكون مزدهرة متحضرة منذ الألف الأول قبل الميلاد » وقال أيضًا : « إن أهمية العرب فى الشرق القديم تكمن فى مجال الحضارة والدين » ، ويكفى أن نذكر كلمتى (البخور ، وعبادة النجوم) لتدرك أثر العرب فى الأمم المجاورة لهم ، ولا سيما العبرانيين واليونان[2] .

ونحن نرى أن الحقبة الأخيرة من العصر الجاهلى ، والتى سبقت ظهور الإسلام بمدة قليلة كان الجاهليون يعرفون قبسًا عن هذه الحضارة وصلها إلينا المؤرخون الإسلاميون غائمة تشوبها الخرافات والأساطير .

وها هو ذا (القرآن الكريم) فى خطابه للعرب فى الحقبة الأخيرة من جاهليتهم يعج بالإشارات الدالة على ما كان يرفل فيه هؤلاء العرب من نعيم وترف وبلهنية الحياة ، ورغد العيش .

كما أننا نرى فى القرآن الكريم قانون السير والنظر ، حيث يؤنب ويوبخ القرآن الكريم هؤلاء الذين كانوا يسيرون فى الأرض ، ويمرون بديار أولئك المترفين ، وهم يعرفون أمرهم وحالهم فى أول الأمر ، وفى الوقت نفسه ما صار إليه حالهم أخيراً من

(١) مصادر الشعر الجاهلى د/ ناصر الدين الأسد ، ط دار المعارف ، سنة ١٩٥٦م .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام د/ جواد على ، جـ٢ ، ص٢٧٧ وما بعدها .

تدمير وعقاب أليم بإزالة النعمة ومع ذلك لا يعتبرون ولا يتعظون ، فنراه يصف (سبأ) بالحياة الزراعية الثابتة الناعمة الرغيدة وأنهم يعيشون فى أمن وطمأنينة ، كما أن تجارتهم وما يحتاجونه فى قرى ظاهرة ، لا يتحملون العناء ووعثاء السفر ، ولطيب هوائها ، وجمال مناخها ، كان إذا مر بها مريض شفى وبرئ من سقمه ، إلى غير ذلك من النعم التى أسبغها الله عليهم ، فأعرضوا فدمرها الله سبحانه حيث إنهم طلبوا التعب بدلاً من الراحة ، والبؤس بدلاً من النعماء[1] .

قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾[3] .

ثم يذكر القرآن عرب الجاهلية فى الحقبة الأخيرة بأنهم لم يبلغوا معشار ما أوتيت الدول من قبلهم .

قال تعالى :

﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾[4] .

ويصف القرآن الكريم قوم (عاد) بفن العمارة والصناعة ، فيقول تعالى :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾[5] .

---

(١) انظر : تأملات فى سورة سبأ للمؤلف ط دار المعارف ، القاهرة .

(٢) سبأ ، آية ١٥ .

(٣) سبأ ، آية ١٨ .

(٤) سبأ ، آية ٤٥ .

(٥) الشعراء ، الآيات : ١٢٨-١٣٤ .

كما يصف (ثمود) بالحياة الزراعية الخصبة وبفن العمارة أيضًا فيقول عز وجل :

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾(١) .

وأما إيماءات القرآن الكريم إلى مرور العرب فى الجاهلية بديار الأقوام الباغية الظالمة التى لم تحدث بالنعمة ، بل قابلتها بالكفران والجحود وهم يعرفون أخبارهم وأحوالهم ، وكيف كانوا وما صار إليه أمرهم بعد نكران النعمة وجحودهم لفضل الله عليهم ، ومن هذه الإيماءات القرآنية قوله تعالى :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾(٢) .

وقوله سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾(٣) .

وقوله تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴾(٤) .

وقوله عز وجل :

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(٥) .

---

(١) الشعراء ، الآيات : ١٤٦-١٤٩ .
(٢) العنكبوت ، آية ٣٨ .
(٣) الفرقان ، آية ٤٠ .
(٤) طه ، آية ١٢٨ .
(٥) الروم ، الآية ٩ .

وقوله سبحانه :

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾[1] .

والقرآن الكريم يهدف من وراء ذلك تبيان العبرة والعظة ولا يرمى إلى تسجيل الأحداث فحسب ، فهو كتاب منزل من عند الله على رسوله ﷺ لا ليسجل الحوادث والأخبار فقط ، بل يذكرها للاذكار والاعتبار ، وذلك دليل على أن عرب الجاهلية الأخيرة كانوا يدركون طرفًا من أخبار وحوادث من سبقوهم من أسلافهم ، وآبائهم الأقدمون . وكذلك الحضارة التى ورثوها عن هؤلاء ، كما أنهم أدركوا بقاياها الدالة على ما كان لهم من سؤدد ومجد وتمدن وحضارة وازدهار .

كما كان للعرب فى الجزيرة حضارة مقبوسة من الأمم المجاورة والتى كانت لهم بها صلات وطيدة ، وعلاقات متينة ، ومن أهم هذه الاتصالات وتلك الروابط اتصالهم بالفرس والروم فقد كان للمناذرة فى الحيرة ، والغساسنة فى الشام ، اتصال وثيق بهاتين الدولتين الكبريين آنذاك ، وقد كان للطرق التجارية التى تجوس خلال الصحراء العربية ، المواثيق والعهود المبرمة والتى تربط عرب الجزيرة الذين تمر القوافل بصحرائهم ، وذلك بالتعهد بالمحافظة عليها ، وتأمين سلامتها من شر المعتدين وقطاع الطرق ، وفى مقابل ذلك لهم جعل يأخذونه .

وهناك رابطة ثالثة وهى : الأسواق والمواسم العربية التى كانت تقام فى الجزيرة العربية ، والتى كان يؤمها العرب من مختلف الأصقاع ، وشتّى البقاع ، كما كان يقصدها التجار من الفرس والهنود ، والرومان والمصريين ، فكان لذلك الاحتكاك أثره الواضح فى حضارة الجزيرة حيث يلتقون فلا يكون اللقاء مقصوراً على تبادل السلع التجارية فحسب بل يكون هناك تبادل الأفكار والآراء ، ومظاهر الحضارة المتباينة ، فمما لا ريب فيه أن ذلك الأمر كان له كبير الأثر فى وجود مظاهر حضارية لدى العرب فى الجزيرة ، وذلك مما لا يختلف فيه اثنان .

(١) سورة غاقر ، الآية ٢١ .

وثمة آمر آخر وهو الوفود التى جاست خلال الجزيرة العربية مع اختلاف جنسياتها وأديانها من رومى وفارسى وهندى وحبشى ، ونصرانى ويهودى ، ومجوسى ، ووثنى ، ومنهم من عمر الأرض بالزراعة أو وفد لنشر عقيدته ، وغير ذلك من الأمور التى كان يهدف إليها كل وافد ، ثم الوفود التى كانت تنزح من الجزيرة وافدة على فارس ، والحبشة وبلاد الروم ، ومصر للتجارة وطلب العلم فيتزودون بجانب التجارة بالطريف من ألوان الحضارة المتباينة[1] .

إذًا فعرب الجزيرة أصحاب حضارة ، ولم يكونوا بدائيين كما توهم ذلك بعض الواهمين ، أو الذين يطلقون الأحكام دون ترو وأناة ، وتصبر ودراسة عميقة لهذه الأحداث فتجيء أحكامهم مجانبة للصواب ، ومجافية للحقيقة كما أنهم لم يكونوا بمعزل عمن جاورهم من الأمم وبخاصة تلك الأمم ذات التمدن والحضارة .

(١) الأغانى ، جـ٣ .

لفظة الجاهلية ومعناها

ليس المقصود بلفظة الجاهلية أنها مشتقة من الجهل وهو عدم العلم ، ولكنها تدل على المعنى المقابل للفظة (الإسلام) .

فالمراد بها تلك الحقبة التى سبقت الإسلام بقرن ونصف أو قرنين على الأكثر ، ويقول ابن خالويه « إن هذا الاسم حدث فى الإسلام للزمن الذى كان قبل بعثة الرسول ﷺ »[١] .

ويقول الدكتور (على الجندى) وقد ورد هذا اللفظ فى القرآن الكريم فى ستة مواضع[٢] ، وبالبحث والاستقصاء والنظر فى كتاب الله تعالى وجدنا أن لفظ (الجاهلية) ورد فى القرآن الكريم فى تسعة مواضع ، وهى :

أولاً : قال تعالى :

﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾[٣] .

فنرى (الطبرى) يقول : ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله شكًا فى أمر الله ، وتكذيبًا لنبيه ﷺ[٤] ، ويقول ابن كثير ، أى إنما هم أهل شك وريب فى الله عز وجل[٥] ، يعنى لما ظن أهل الريبة والشك ما يتنافى مع الحق حين تغلب المشركون يوم أحد ، واعتقدوا أن الإسلام قد قضى نحبه ، وهلك أهله ، جعل الله هذا جاهلية[٦] .

---

(١) بلوغ الأدب ، جـ١ ، ص١٦ .

(٢) فى تاريخ الأدب الجاهلى ، ص٣ ، ط دار المعارف ، القاهرة .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٥٤ .

(٤) تفسير ابن جرير الطبرى .

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الأول ، ص٣٢٩ ، ط دار القرآن الكريم - بيروت - لبنان .

(٦) جاهلية القرن العشرين للأستاذ محمد قطب .

ثانياً : قوله تعالى :

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1] .

فقد عد القرآن الكريم الذين يرفضون الحكم بما أنزل الله وهو المشتمل على كل خير ، والناهى عن كل شر ، وعدل إلى ماسواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم[2] عدها القرآن جاهلية .

ثالثاً : قال تعالى :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾[3] .

وفى هذه الآية عد القرآن الكريم التبرج والسفور جهلاً .

رابعاً: قوله تعالى :

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾[4] .

فقد ذكر الله عن أنفة المشركين فى صلح الحديبية أنها ثورة غضب جاهلية .

خامساً : قوله عز وجل :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾[5] .

سادساً : قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[6] .

فقد أمر موسى عليه السلام قومه امتثالاً لأمر ربه أن يذبحوا بقرة ، فكان جوابهم «أتتخذنا هزوًا ، قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين» ، فجعل فعل الهزو جهلاً .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٥٠ .
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ، ص٥٢٥ .
(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٣٣ .
(٤) سورة الفتح ، الآية ٢٦ .
(٥) سورة الفرقان ، الآية ٦٣ .
(٦) سورة البقرة ، الآية ٦٧ .

سابعاً : قال سبحانه :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[1] .

فقد عد القرآن الكريم السفاهة جهلاً ، ولذلك أمر الله رسوله عليه السلام بالإعراض عن سفهاء قومه .

ثامناً : قال تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[2] .

فجعل ميله إلى الفاحشة جهلاً .

تاسعاً : قوله تعالى :

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[3] .

أى إنى أرشدك إلى الحق لكيلا تكون من الجاهلين الذين تنسيهم الشفقة الحقائق الثابتة[4] .

وفى السنة المطهرة وردت كثرة كاثرة من الألفاظ التى تدل على هذا المعنى ، ومن بينها ما ساقه البخارى فى كتاب الإيمان بعنوان (المعاصى من أمر الجاهلية) يقول : (كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصارى يا للأنصار ، وقال المهاجرى يا للمهاجرين فقال رسول الله ﷺ : (ما بال دعوى الجاهلية دعوها فإنها منتنة)[5] .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٣٣ .

(٣) سورة هود ، الآية ٤٦ .

(٤) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، الطبعة الخامسة ، ص٣١٥ ، ١٣٩٥هـ ، ١٩٧٥م .

(٥) رواه أحمد والبيهقى وأصله فى البخارى .

وعن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : (إنى سابيت رجلاً فعيَّرته بأمه ، فقال لى النبى ﷺ : يا أبا ذر ، أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية)[1] وخطب رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقال : (يا أيها الناس إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبية[2] الجاهلية ، وتفاخرها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل بر تقى كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر شقى هين على الله تعالى)[3] فكانت عصبية الجنس من الجاهلية .

وفى خطبة حجة الوداع ، أبطل رسول الله ﷺ كثيراً من أمور الجاهلية ثم قال : (ألا إن كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع)[4] .

وبعد التطواف فى رياض القرآن الكريم ، وحدائق السنة النبوية نعرج على ما ورد فى هذه اللفظة من الأقوال المأثورة ، ومن ذلك قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : «إنى نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة » وقول السيدة الفضلى عائشة رضى الله عنها : «كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء» وقولهم : يا رسول الله كنا فى جاهلية وشر .

والمقصود من هذا كله : حال جاهلية ، أو خصلة من خصال .

الجاهلية الحديثة :

ربما يكون غريبًا على سمع بعض القراء حينما يفاجأ بذلك العنوان حيث إنه يعيش فى ظلال عصر العلم والتكنولوچيا ، عصر الحضارة والتمدن أما لفظة الجاهلية فقد التصق بذهنه أنها تلك الحقبة التى كانت قبل مبعث رسول الله ﷺ .

بيد أنه إذا ما عرفنا معنى الجاهلية وأحوالها ، وقسنا بها كثيراً من حالات العصر الحديث ، أدركنا أن هنالك ألوانًا من ضروب الجاهلية يعيشها الناس فى عصر الذرة والصاروخ ، والدبابة والطائرة وسفن الفضاء . فالجاهلية ليست فترة تاريخية ، إنما هى حالة توجد كلمات وجدت مقوماتها فى وضع أو نظام ، وهى فى صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر لا إلى منهج الله وشريعته للحياة ، ويستوى أن تكون هذه الأهواء أهواء فرد ، أو أهواء طبقة ، أو أهواء أمة ، أو أهواء جيل كامل من الناس ، فكلها ما دامت لا ترجع إلى شريعة الله . . أهواء[5] .

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وأحمد . (٢) العبية : الكبر .
(٣) رواه أحمد وأبو داود . (٤) رواه الترمذى وابن ماجه .
(٥) فى ظلال القرآن للإمام الشهيد / سيد قطب - المجلد الثانى ، جـ٦ ، ص٨٩١ ، دار العلم للطباعة والنشر بجدة ، السعودية .

يشرع فرد لجماعة فإذا هى جاهلية . لأن هواه هو القانون أو رأيه هو القانون . . لا فرق إلا فى العبارات !

وتشرع طبقة لسائر الطبقات فإذا هى جاهلية . لأن مصالح تلك الطبقة هى القانون، أو رأى الأغلبية البرلمانية هو القانون - فلا فرق إلا فى العبارات !

ويشرع ممثلو جميع الطبقات وجميع القطاعات فى الأمة لأنفسهم فإذا هى جاهلية، لأن أهواء الناس الذين لا يتجردون أبدًا من الجهل ، هو القانون أو لأن رأى الشعب هو القانون - فلا فرق إلا فى العبارات .

وتشرع مجموعة من الأمم للبشرية فإذا هى جاهلية لأن أهدافها القومية هى القانون، أو رأى المجامع الدولية هو القانون - فلا فرق إلا فى العبارات .

ويشرع خالق الأفراد ، وخالق الجماعات ، وخالق الأمم والأجيال ، للجميع ، فإذا هى شريعة الله التى لا محاباة فيها لأحد على حساب أحد ، لا لفرد ، ولا لجماعة ، ولا لدولة ، ولا لجيل من الأجيال ، لأن الله رب الجميع والكل لديه سواء ، ولأن الله يعلم حقيقة الجميع ومصلحة الجميع ، فلا يفوته سبحانه أن يرى مصالحهم وحاجاتهم دون تفريط ولا إفراط .

ويشرع غير الله للناس ، فإذا هم عبيد من يشرع لهم كائنًا من كان ، فردًا أو طبقة أو أمة أو مجموعة من الأمم ويشرع الله للناس ، فإذا هم كلهم أحرار متساوون لا يحنون جباههم إلا الله ، ولا يعبدون إلا الله[1] .

ومن هنا كانت الخطورة فى حياة بنى الإنسان وفى نظام الكون كله « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » .

والجاهلية مصدر صناعى كما أُومِئَ إلى ذلك آنفًا يدل على نسبة الشىء إلى الجهل ، والجهل ثلاثة أضرب :

الأول : خلو النفس من العلم ، وهذا هو الأصل .

الثانى : اعتقاد الشىء بخلاف ما هو عليه .

الثالث : فعل الشىء بخلاف ما حقه أن يفعل ، سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا .

---

(١) فى ظلال القرآن للإمام الشهيد / سيد قطب - المجلد الثانى ، جـ٦ ، ص٨٩١ ، دار العلم للطباعة والنشر بجدة ، السعودية .

ولفظة الجاهلية مصدر صناعى مشتق من « الجاهلى » نسبة إلى (الجاهل) والجهل فى اللغة ضد العلم .

ويقول (الألوسى)[1] هو عدم العلم .

فالجاهلية من حيث كونها اسمًا لزمن تطلق على الحقبة التى كانت قبل بعثة النبى ﷺ ، ولا تطلق على زمن بعد هذه البعثة ، أما من حيث كونها صفة ، فقد يوصف بها بلد غير إسلامى ، أو شخص قبل أن يسلم ، أو مسلم فيه صفة من صفات الجاهلية ، فهو جاهلى وإن كان من أهل الإسلام .

دليل ذلك قول النبى ﷺ : « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم والنياحة » ، وقوله ﷺ لأبى ذر الغفارى لما عير رجلاً بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية » .

وليس معنى أن العرب كانوا جاهليين بمعنى أنه لم يكن لديهم علم البتة ، بل كان لديهم علم وفكر ، بيد أنهم لم يطبقوا ذلك على أنفسهم عمليًا يعنى سلوكًا . فقد ثبت أنهم أهل ذكاء وخبرة ، وخير شاهد على ذلك ما يروى لهم من أشعار تدل دلالة صادقة على صفاء نفوسهم ، واتقاد أذهانهم ورقة أحاسيسهم ومشاعرهم ، وصدق عواطفهم ونضج أفكارهم حتى بلغ شعرهم أرقى درجات العذوبة والجمال .

وكذلك جاء نثرهم يدل على صفاء قرائحهم ، ودقة الملاحظ لديهم .

ثم إنهم كانوا يدركون مرامى القرآن ، كما أنهم أكثروا الجدل حوله وذلك دليل على رسوخهم ومقدرتهم الفائقة على التصوير .

كل ذلك ينفى عن العرب الجهل الذى هو ضد العلم ونحن نرى أن وصفهم بالجاهلية – أى جاهلية الدين – وقد وردت آيات كثيرة بهذا المعنى مثل قوله تعالى : ﴿ **ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب** ﴾ .

---

(١) بلوغ الأدب للألوسى ، جـ١ ، ص١٦ ، ١٧ .

فجاء الإسلام فأزاح عنهم براثن الجاهلية ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وصحح العقيدة ، حيث إنهم كانوا فى ظلام دامس ، وليل حالك ، ذلكم ظلام الضلال الدينى فقد كان فيهم مشركون ويهود ونصارى ومجوس ، وقد يراد بالجهل السفه والحمق والطيش وعدم التريث فى الأمور ، فقد كان العربى يشعل نار الحرب لأتفه الأسباب ، وقد ورد ذلك فى القرآن الكريم : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ وورد أيضًا فى أشعارهم . يقول « عمرو بن كلثوم » :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومع ذلك فقد كان من بينهم أناس اشتهروا بالذكاء والعقل والحكمة والاتزان وبعد النظر حتى إنهم احتلوا مكانة مرموقة فى قبائلهم وعشائرهم يستشيرونهم فى معضلات الأمور ، كما أنهم يقومون بفض المنازعات بين القبائل المتأخرة ، ويحكمون فيما شجر بينهم .

ومن هؤلاء :

« الأقرع بن حابس التميمى » و « هاشم بن عبد مناف القرشى » و « أكثم بن صيفى التميمى » و « الأفعى بن الأفعى الجرهمى » و « ذو الإصبع العدوانى » و « التلمس الكنانى » و « عامر بن الظرب العدوانى » و « عبد المطلب بن هاشم » ولم يكن الأمر مقصوراً على الرجال فحسب بل كان من بين النساء حكيمات عرفن بسداد الرأى ، والزكانة والرزانة ومن بينهن :

« حذام بنت السريان » والتى قيل فى شأنها إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام[1] ومنهن أيضًا « ابنة الخس الإيادية » وأختها « جمعة » و «صحر بنت لقمان» و « خصيلة بنت عامر بن الظرب العدوانى » . وعلى أية حال فإن ما وصم به الجاهليون من جهل فهو الجهل الدينى ، وليس المراد به الجهل الذى هو ضد العلم أو المراد به ما يتنافى مع صفات العالم الرشيد أو ما ليس من سلوك الحليم ذى الرأى السديد ،

(١) بلوغ الأدب للألوسى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى والمرشح ، ص٢٥٣ ، وتاريخ اليعقوبى ، جـ١ ، ص٢٥٨ .

أو نظرية رياضية ، أو مسألة فقهية ، تخص جاهلاً بالمعنى الأول ، لأنه لا علم له بذلك ، ومثل هذا يقال فى النسبة إليه « جاهلية » .

والشخص الذى يعتقد أنه تعاطى المواد السامة لا يضر أو أن الأخذ فى الأسباب غير مشروع ، أو أن الأنبياء والملائكة والأولياء لا يملكون من أمر الحياة شيئًا ، أو يكون تصوره للكون والحياة تصوراً خاطئًا شخص جاهل بالمعنى الثانى ، لأنه يعتقد فى هذه الأشياء على خلاف ما هى عليه ، ومثل هذا يقال فى النسبة إليه « جاهلية » .

والشخص الذى يترك الصلاة وهو يعلم أنها ركن من أركان الإسلام أو يفعل معصية كبيرة كانت أو صغيرة ، أو يضع الأمر فى غير موضعه ، شخص جاهل بالمعنى الثالث ، لأنه يفعل الشىء بخلاف ما حقه أن يفعل سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحًا أو فاسداً ، ومثل هذا يقال فى النسبة إليه « جاهلية » ، وقد شاع لدى الناس أن الجاهلية هى الحال التى كان عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله وشرائع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر ونحو ذلك .

ولكن هذه الحال التى أطلق عليها اسم الجاهلية ليست خاصة بزمن معين ، ولا بقوم بعينهم ، وحينما وجدت حالة أو أكثر من الحالات التى كانوا عليها فى أى عصر ولو كان هذا فى عصر العلم والتقنية والتقدم والحضارة والتمدن ، فإنه يقال فيها إنها من الجاهلية ، وهذا هو ما دل عليه القرآن ودلت عليه السنة المطهرة .

ونكتفى هنا بسرد بعض الآيات القرآنية مكتفين بما تقدم ذكره من النصوص والآثار .

أمر موسى عليه السلام قومه امتثالاً لأمر ربه أن يذبحوا بقرة ، فماذا كان جوابهم ، وماذا كان جوابه لهم ؟

﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٦٧ .

وأمر الله رسولنا ﷺ أن يعرض عن سفهاء قومه فقال :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[1] .

وقال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[2] ، فجعل ميله إلى الفاحشة جهلاً .

ولما ظن أهل الريبة والشك ما يتنافى مع الحق حين تغلب المشركون يوم أحد ، واعتقدوا أن الإسلام قد قضى نحبه وهلك أهله جعل الله هذا جاهلية :

﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾[3] .

وقال تعالى فيمن رفضوا الحكم بما أنزل الله :

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[4] .

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ﴾[5] .

وذكر الله عن أنفة المشركين فى صلح الحديبية أنها ثورة غضب جاهلية فقال :

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾[6] .

يتبين لنا من تلك النصوص الواردة فى الكتاب والسنة أن كل انحراف عن هداية الله فى الاعتقاد أو السلوك أو العمل من أمر الجاهلية فى أى عصر وفى أى مجتمع بلغ ذروة المعرفة وقمة الحضارة ، بل إن انحرافات الجاهلية فى العصر الحديث أكثر تعقيداً من انحرافات الجاهلية فى العصور الأولى ، لأنها ترتدى رداء العلم ، وتلبس ثياب الحضارة ، فهى براقة خداعة ، أما الانحرافات الأولى فقد كانت سطحية ساذجة .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩ .
(٢) سورة يوسف ، الآية ٣٣ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٥٤ .
(٤) سورة المائدة ، الآية ٥٠ .
(٥) سورة الأحزاب ، الآية ٣٣ .
(٦) سورة الفتح ، الآية ٢٦ .

فالتصور المادى الذى تقوم عليه نظرة الحضارة المادية الحديثة إلى الكون والحياة والإنسان تصور جاهلى ، لأنه يلغى أى اعتبار لوجود إله خالق مدبر لهذا الكون ، ويجعل إرادة الإنسان وحدها هى القدرة التى تستخدم الكائنات وتوجهها وتكيف الحياة كما تشاء ، وتصوغها الصياغة التى تريد فالإنسان هو سيد الكون وصانع الحياة ، ووجهة العالم الغربى نحو الآلة والمصنع التى أعطت للمدنية الحديثة مفهومًا جديداً يدعو إلى الإيمان بالإنسان وتقديس عقله وعلمه ، لأنه هو الذى عرف خواص المادة ، فهذه الوجهة نمط من أنماط الجاهلية الحديثة يدعو إلى عبادة الإنسان الصانع المبتكر المبدع بدلاً من عبادة الله ، فلسان حالها يقول : لقد أصبح من العار على الإنسان أن يعبد قوة غيبية لا تدركها الحواس ، ولم يعد يليق به أن يسلم بشىء لا يضعه موضع النقد والتمحيص والتجربة .

والتفسير المادى للتاريخ الذى يؤمن بحتمية انهيار الإقطاع وحتمية انهيار الرأسمالية لقيام الشيوعية وقيام دولة الفلاحين والعمال . هذا التفسير جاهلية حديثة ، لأنه أغفل الله وتدبيره للكون والحياة والإنسان وجعل تاريخ البشرية تاريخ البحث عن الطعام ، وما الدين والتدين والرسالة إلا أكذوبة اخترعها الإقطاعيون لتخدير الشعوب العاملة الكادحة .

والعزوف عن تحكيم شريعة الله فى أوضاع الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدستورية والقانونية واستبدال القوانين الوضعية بها جاهلية ، وإن ادعى الناس أنهم بهذا يسايرون ركب الحضارة ، ويراعون مقتضيات العصر .

وموجات الانحلال الخلقى التى تنفث سمومها فى المجتمعات وتدعو المرأة باسم العلم والحرية والتمدن إلى السفور والاختلاط وتقود الناس إلى المجون والعبث ، هذه الموجات على اختلاف صورها وألوانها موجات جاهلية ، وإن عدتها المدنية الحديثة من سمات التقدم والحضارة[1] .

---

(١) انظر « جاهلية القرن العشرين » للأستاذ محمد قطب ومقال للأستاذ مناع خليل القطان . مدير المعهد العالى للقضاء - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . الرياض ، ص٢٠٩ ، ٢١٣ .

وخلاصة القول فى ذلك أن كل انحراف عن منهج الله وشريعته فى القديم والحديث من الجاهلية ، وإن اختلفت صوره من عصر لعصر ومن بيئة لبيئة .

والشباب المسلم مدعو لأن يقيم حضارة أمته نظيفة من أدران الجاهلية ورجسها حتى تكون حضارة إسلامية فاضلة .

بلاد العرب :

إن للبيئة كبير الأثر فى تشكيل شخصية الإنسان ، وبخاصة الشعراء أصحاب الحس المرهف ، والعاطفة الجياشة ، والذوق الأدبى الرفيع ، ولكى نتعرف هذه البيئة العربية التى نما فيها هذا الأدب العظيم ، وترعرع بين أعطافها ، فإننا نستطيع تعرُّفها بواسطة هؤلاء الذين أنشأوا هذا الفن الشعرى الجميل الرائع ، والمعروف بذلك الاسم (الأدب) وهم العرب الذين استوطنوا شبه الجزيرة العربية ، سواء أكانوا يقطنون أواسطها بنجد ، أم يقيمون فى أطرافها بالحيرة والشام وعمان والبحرين . والزمن الذى يستوعب هذا الشعر لا يتجاوز قرنين قبل ظهور الإسلام[1] لأنه أقدم شعر وصل إلينا ، وهو الذى يقيل فى هذه الفترة ، وليس معنى هذا أنه أول شعر قيل[2] .

والبيئة التى نشأ فيها هذا الشعر هى (شبه الجزيرة العربية) والتى سماها العرب تجوزًا (الجزيرة العربية) وهى أكبر شبه جزيرة فى العالم يبلغ عرضها نحو ثمانمائة ميل ، وطولها نحو ثلاثة وثلاثين وخمسمائة وألف من الأميال[3] .

فهى أكبر من شبه جزيرة الهند ، وثمانية أضعاف الجزرر البريطانية وأربعة أضعاف (فرنسا) وهى تعادل ربع أوربا أو ثلث الولايات المتحدة مساحة[4] ، وقد سموها جزيرة لأن البحار والأنهار تحيط بها من جميع مناحيها فصارت كالجزيرة فى البحر .

---

(١) الحيوان للجاحظ ، جـ١ ، ص٧٤ .

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلى د/ أحمد الحوفى ، ص١١٥ وما بعدها .

(٣) صفة جزيرة العرب للهملانى ، ص٢ .

(٤) تاريخ العرب للمؤلف فيليب حتى جـ١ ، ص٦ وما بعدها . ومصادر الشعر الجاهلى د/ الأسد هامش «١» ، ص١ ، وأغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى د/ أحمد الحوفى ، ص٢٠ ، ٢١ .

وذلك أن الفرات أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنّسرين ثم انحط على أطراف الجزيرة ، وسواد العراق حتى وقع فى البحر بناحية البصرة ، والأبلة ، وامتد إلى (عبادان) وأخذ البحر من ذلك الموضع مغربًا مطيفًا ببلاد العرب منعطفًا إليها ، ثم ساحل الطور وخليج أبلة ، وساحل راية حتى بلغ (قلزم) مصر وخالط بلادها ، وأقبل النيل من غربى هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضًا للبحر معه حتى دفع فى بحر مصر والشام ، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلاد (فلسطين) فمر بعسقلان وسواحلها وأتى على (صور) وعلى بيروت ، وتوابعها من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل (حمص) وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التى أقبل منها الفرات[1] . وحدود الجزيرة من الشرق (خليج العرب) ومن الغرب (البحر الأحمر) ومن الشمال بما يقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ومن الجنوب بالبحر العربى .

ولسنا نخالف بهذا ما تعارف عليه القدماء من العرب وغيرهم حيث أطلقوا كلمة (العرب) على سكان البادية الممتدة بين الفرات شرقًا والنيل غربًا ، وبهذا أدخلوا فيها بادية الشام والعراق وشبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية[2] أما اليونان فى عهد البطالسة ، فقد سموا الجزيرة العربية ببلاد العرب ، وأما الجغرافيون من العرب فقد أرادوا ببلاد العرب شبه الجزيرة ، وأدخلوا فيها بلاد الشام ، وطرفًا من العراق ، وشبه جزيرة سيناء يستبين لنا ذلك من قول الهمدانى : « جنوبيها اليمن ، وشماليها الشام ، وغربيها شرم أيلة ، وشرقيها عمان إلى البحرين وكاظمة والبصرة ، ووسطها الحجاز وأرض نجد والعروض »[3] .

أقسام الجزيرة العربية :

من المعروف أن أقسام الجزيرة العربية خمسة ، وهذه الأقسام متعارف عليها من العرب ، وذكرت فى أشعارهم ، وهى : الحجاز ، وتهامة ، ونجد ، والعروض ، واليمن وذلك أن جبل (السراة) أعظم جبال العرب ، أقبل من اليمن حتى بلغ أطراف

(١) صفة جزيرة العرب ، ص٤٦ وأيضًا معجم البلدان لياقوت الحموى « جزيرة العرب » .
(٢) أغانى الطبيعة د/ الحوفى ، ص٢١ .
(٣) صفة جزيرة العرب للهمدانى ، ص١ .

بادية الشام فسمته العرب حجازًا لأنه حجز بين الغور ، وهو هابط ، وبين (نجد) وهو عال ، فصار ما خلف ذلك الجبل من غربيه إلى شواطىء البحر وهو (غور تهامة) ، و«**تهامة**» تجمع ذلك كله وصار ما دون ذلك الجبل من شرقيه من صحارى نجد إلى أطراف العراق ، والسماوة وما يليها (نجدًا) و«**نجد**» تجمع ذلك كله وصار الجبل نفسه ، وما احتجز فى شرقيه من الجبال ، وانحدر إلى ناحية (نيد) وجبل (طيء) إلى المدينة وأرض (مذحج) حجازًا ، والعرب تسميه (نجدًا) وجلسًا وحجازًا ، والحجاز يجمع ذلك كله ، وصارت بلاد (اليمامة) والبحرين وما والاها (العروض) وصار ما خلف تثليث إلى صنعاء وحضر موت والشحر وعمان (اليمن)[1] . أما الحجاز ففى شمال الجزيرة وغربها وطوله يبلغ نحو سبعمائة ميل وعرضه نحو خمسين ومائتين ميلاً ، وأما اليمن فإقليم الجنوب المتسع الأخضر فعل ما تفعله المنطقة المعتدلة والحارة من حبوب وفواكه ، وبثراه معادن نفيسة ، وأما العروض فهو الأرض التى تعترض ما بين (اليمن ، ونجد ، والخليج العربى) والقسم الداخلى منه هو اليمامة والساحلى هو البحرين وكان باليمامة أكثر (تميم) وقليل منها كانوا (بنجد) ، ونجد أكبر قسم من بلاد العرب يشكل صحراءها الوسطى وبه كثير من الجبال والأودية والصحارى ، وليس هذا الإقليم قاحلاً كما كان الناس يظنون ، لأن به مراعى جيادًا ، وبه كثير من عيون الماء ، وبخاصة فى منطقة جبل (شمرن أجأ وسلمى)[2] أما تهامة فهى الجزء المنخفض بين الحجاز والبحر الأحمر ، بعضه فى الشمال ، وبعضه فى الجنوب ، فهناك الحجاز وتهامته ، واليمن وتهامته .

المنـــاخ :

إن لجو الإقليم أثرًا طبيعيًا وقويًا فى حيوات أهله الاجتماعية والسياسية والدينية والعقلية ، فهو ينهج لهم سنن معاشهم ، ونظام اجتماعهم ، بل هو يكون فى الأغلب الأعم الكثير من طباعهم وأخلاقهم ، وقد استبان لنا مما تقدم أن الجزيرة العربية ممتدة

(١) صفة جزيرة العرب للهمدانى ، ص٤٧ ، وأغانى الطبيعة للحوفى ، ص٢٢ .
(٢) جزيرة العرب فى القرن العشرين لحافظ وهبة ، ص٥١ .

الأرجاء ، فسيحة الأنحاء شرقًا ، وغربًا ، وشمالاً وجنوبًا ، كما أن أراضيها متباينة انخفاضًا وارتفاعًا ، وبعضها قريب من ساحل البحر ، وآخر موغل فى البعد عنه . لذلك نرى المناخ مختلفًا ، والأجواء متباينة .

فهناك الحر الشديد والذى يشبه فى لهيبه زفير النار ، وهناك صقيع تنتفع منه الجلود ، كما أن هناك الجو المعتدل ، وهناك أيضًا تبعًا لاختلاف المناخ نرى القحط ، والجفاف ، كما نرى الغيث الهاطل والمطر المدرار الذى يتدفق فيجرى على الأرض أنهارًا . وهناك الرذاذ الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع .

فبينما يكثر هبوب الرياح الغربية فى شمال الجزيرة وعلى السواحل الجنوبية منها ، يكثر هبوب الريح الشرقية ، وعلى « نجد » يهب نسيم الصبا من الشرق ، ولقد أكثر الشعراء من ذكرها فى أشعارهم حيث تذكرهم بمحبوباتهم ، ويحملونها تحاياهم ، ويودعونها أشواقهم وذكرياتهم .

وها هو ذا شاعرهم يقول فى هذه المعانى :

أقول لصاحبى والعيس تهوى	بنا بين المنيعة فالصمار
تمتع من تميم عرار نجد	فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد	وريا روضة بعد القطار
وأهلك إذ يحل الحى نجدًا	وأنت على زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا	بأنصاف لهن ولا سرار

وهواء نجد فى جملته معتدل جاف ، وإن مال إلى البرودة فى بعض الجهات ، واشتد حره فى جهات أخرى . على أن أكثر الرياح هبوبًا على نجد هى الرياح الغربية ، وتهب على وسط الجزيرة وشماليها ريح شمالية باردة جدًا ، وقد تمدح العرب بالجود وقت هبوبها لأنه زمن القحط . فقال الشاعر فى هذا المعنى :

العيس : الإبل البيض فى شقرة . العرار . نبت طيب الرائحة . ربا روضة رائحته الذكية . السرار بفتح السين وكسرها . آخر ليلة من الشهر . القطار : جمع قطرة والمراد بها : المطر . مريع يعنى «خصيب» الثمالا . يعنى الثمال . زهو ، النبات .

لقد علم الضيف والمرملون إذا اغبر أفق وهبت شمالا

بأنك ربيع وغيث مريع وأنك هناك تكون الثمالا

أما المطر فهو قليل بصفة عامة ، والجزيرة خلو من الأنهار الدائمة ، كما أنها محرومة من الأمطار الغزاة كالتى تسقط على الحبشة ، وإذا نزل المطر غزيراً جرى فى الأودية ففاضت كأنها أردية . ومثل « وادى الرمة » ووادى « حنيفة » وهو يترك بالأودية غدوانًا ورياضًا وقيقانًا وأحساء وعيونًا .

ومما لا ريب فيه أن المطر ينبوع حياة العرب فى الجزيرة حيث إنهم يحيون بمائه ، ويجدبون ويصابون بالقحط فى غيابه ، ومن أجل ذلك سموه غيثًا ورحمة وتناولوه فى أشعارهم فوصفوا الغمام الماطر والجهام ، كما أنهم سموا المطر بكثرة كاثرة من الأسماء ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الوابل ، والرذاذ ، كما سموا السنة المجدبة بالشهباء . تقول حليمة السعدية : « وذلك فى سنة شهبا ، ولم تبق لنا شيئًا »[1] وذلك بصدد حكايتها عن إرضاع سيدنا محمد ﷺ فى هذه السنة التى خرجت فيها مع بقية المرضعات يلتمسن الرضعاء .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، جـ١ ، ص١٥٠ تقديم وتعليق الأستاذ عبد الرءوف سعد .

كلمتى : عرب ، وأعراب وأصلهما

مدخل :

العرب : هم جيل من الناس تدلت عليه الشمس منذ القدم فى هذه الجزيرة التى كأنها قطعة انخزلت من السماء مع الإنسان الأول ، فلا يزال أهلها أبعد الناس منزعًا فى الحرية الطبيعية وأشدهم منافسة فى مغالبة الهمم كأنما ذلك فيهم ميراث الطبيعة الأولى فهم منه ينبتون وعليه يموتون[1] .

وهم أيضًا سكان الفيافى وتربية العراء ، ينبسطون مع الشمس ويفيئون مع الظل ويطيرون فى مهب الهواء ، بل أولاد السماء ، ما شئت من أنوف حمية وقلوب أبية وطباع سيالة وأذهان حداد ونفوس منكرة ، وقد أصبحت بقاياهم الضاربة فى بوادى العربية ومصر وسورية لهذا العهد موضع العجب لأهل البحث من علماء الطبائع حتى أجمعوا على أنه لابد لهذا الجنس فى جميع السلائل البشرية من حيث الصفات التى تتباين فيها أجناس البشر خلقًا وخلقًا ، وحتى صرح بعضهم بأن هذه السلالة تسمو على سائر الأجيال بالنظر إلى هيئة القحف وسعة الدماغ وكثر تلافيفه وبناء الأعصاب وشكل الألياف العضلية والنسيج العظمى وقوام القلب ونظام نبضاته فضلاً عما هى عليه من ملاحة السحنة وتناسب الأعضاء وحسن التقاطيع ووضوح الملامح وفضلاً عما فى طباعها من الكرم والأنفة والأريحية وعزة النفس والشجاعة .

لا جرم أن كانوا أهل هذه اللغة المعجزة التى ناسبتهم بأوضاعها فى معانى التركيب حتى كأنما كتب لها أن تكون دين الألسنة الفطرى لتصلح بعد ذلك أن تكون لسان دين الفطرة[2] .

وهم أحد الشعوب السامية نسبة إلى « سام بن نوح » عليه السلام وقد تحدث علماء اللغة والأدب والتاريخ عن وجه تسمية العرب بهذا الاسم .

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ، جـ١ ، ص٤٤ ، دار الكتاب العربى ، لبنان ، بيروت .
(٢) ذاته .

يقول الألوسى : إنهم سموا بالعرب لاشتهارهم بالفصاحة والبيان من قولهم : أعرب الرجل عما فى ضميره إذا أبان عنه[١] .

ويقول الرافعى : (العرب أحد الشعوب السامية نسبة إلى (سام بن نوح) عليه السلام وهى الأمم التى ذكرت التوراة أنها من نسله وتسمى لغاتها باللغات السامية أيضًا كالعربية والعبرانية والسريانية والحبشية والآرامية وغيرها وهى تسمية استحدثها بعض المتأخرين من علماء اللغات)[٢] .

ويمضى الرافعى متحدثًا عن منشأ تلك الشعوب فيقول : (وقد اختلف الباحثون فى منشأ تلك الشعوب الذى امتهدته وتفرقت منه ، فذهب بعضهم إلى مهد الساميين (الحبشة) فى أفريقية وقال آخرون بأن مهدهم « جزيرة العرب » والقائلون بهذا الرأى أكثر نفرًا وأعز أنصارًا)[٣] .

والصحيح أن اللفظة قديمة يراد بها فى اللغات السامية معنى البدو والبادية ، وتلك خصيصة العرب فى التاريخ القديم .

وقال بعض الباحثين إنهم سموا بذلك حين نزحوا عن أرضهم الأولى - جهة العراق - إلى الجزيرة لأن نزوحهم كان إلى الغرب ، واللغة السامية الأصلية ليس من حروفها (العين) فأصل اللفظة على ذلك (غرب) وهو تخريج على النسبة كالذى خبط فيه علماء اللغة .

ثم حدثت من هذه اللفظة ، لفظة (الأعراب) ، حين تحضرت القبائل فخصوا الكلمة بأهل البادية ، وقال الأزهرى : (رجل عربى ، إذا كان نسبه فى العرب ثابتًا ، وإن لم يكن فصيحًا وجمعه (العرب) ورجل أعرابى إذا كان بدويًا صاحب نجعة وانتواء وارتياد الكلأ وتتبع مساقط الغيث فهو يقيم حيث يجد المرعى ، فإذا أجدب انتجع وذهب فى طلبه[٤] .

---

(١) بلوغ الأدب للألوسى ، جـ١ ، ص٧ .

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعى ، جـ١ ، ص٤٧ .

(٣) ذاته ، ص٤٠ .

(٤) تاريخ آداب العرب للرافعى ، ١/ ٥٣ ، ٥٤ ، دار الكتاب العربى ، لبنان ، بيروت .

عرب وإعراب :

تطلق كلمة (عرب) فى التاريخ الحديث على سكان الجزيرة العربية كلها ومصر والشام والعراق والسودان والمغرب العربى كله ، ولكنها كانت فى التاريخ القديم تطلق على سكان الجزيرة العربية فقط ؛ لأن أهل العراق ومصر والشام والمغرب والسودان كانت لهم لغات أخرى غير العربية ، فلما فتح الإسلام هذه البلاد ، وسادت اللغة العربية لسانهم سموا عربًا استئناسًا بقول رسول الله ﷺ : (ليست العربية منكم بأب أو أم ، فمن تحدث العربية فهو عربى)[1] .

وقد كان لفظ (عرب) فى التاريخ القديم يرادف لفظ (بدو) أو بادية فى أيامنا . قال تعالى على لسان سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ **وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ** ﴾[2] أى وجاء بكم من البادية ، وكانوا أهل بادية وماشية[3] .

وقال ابن جريج وغيره وكانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام ، وبعضهم يقول : (كانوا بالأولاج وكانوا أصحاب بادية وشاه وإبل وقد ذكرهم الله بنعمته على آل يعقوب حيث نقلهم من البادية إلى الحضر واجتمع شمل الأسرة بمصر)[4] .

والأعراب هم سكان البادية بخاصة ولا مفرد له ، قال فى القاموس : العرب بالضم والتحريك خلاف العجم وهم سكان الأمصار ، أو هو عام ، والأعراب سكان البادية ، ولا واحد له[5] .

---

(١) من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى أ. د/ سعد ظلام ، ص١١ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ١٠٠ .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير المجلد الثانى ، ص٢٦٢ ، بيروت ، لبنان .

(٤) تفسير ابن كثير المجلد الثانى ، ص٤٩٢ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

(٥) القاموس المحيط للفيروزآبادى مادة « عرب » .

وقد ورد لفظ (الأعراب) فى القرآن الكريم عشر مرات مراداً به هذا المعنى أى هم سكان البوادى .

قال تعالى :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١) .

وقال تعالى :

﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(٢) .

وقوله تعالى :

﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٣) .

وقوله عز وجل :

﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤) .

وقوله عز وجل :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾(٥) .

وقوله سبحانه :

﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾(٦) .

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٩٠ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ٩٧ .
(٣) سورة التوبة ، الآية ٩٨ .
(٤) سورة التوبة ، الآية ٩٩ .
(٥) سورة التوبة ، الآية ١٠١ .
(٦) سورة التوبة ، الآية ١٢٠ .

وقوله تعالى :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾[1] .

وقوله تعالى :

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾[2] .

وقوله جل فى علاه :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا ﴾[3] .

وقوله تعالى :

﴿ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[4] .

والمراد بالأعراب فى هذه الآيات جميعها «سكان البادية» وفى القاموس «العرب» : جيل من الناس والنسبة إليهم « عربى » وهم أهل الأمصار ، والأعراب منهم سكان البادية خاصة والنسبة إليه « أعرابى » وليس الأعراب جمعًا لكلمة « عرب » بل هو اسم جنس ، والعرب العاربة : الخلص منهم أكد من لفظه ، كليل لائل ، وربما قالوا (العرب العرباء) و (العرب المستعربة) الذين ليسوا بخلص[5] ، وقد صار لفظ الأعرابى بعد الإسلام مما يراد به الجفاء وغلظ الطبع ، وكانوا يسمون ذلك فى الرجل (أعرابية) فيقولون للجافى منهم : ألم تترك أعرابيتك بعد ؟ وبذلك خرجت الكلمة عن مطلق معنى البادية إلى معنى خاص يلازمها . والأعراب يومئذ هم أهل الفصاحة ، يلتمسهم الرواة ويحملون عنهم ، ويرون فيهم بقية اللغة ، ومادة العرب وبهذا نزلوا من تاريخ الإسلام منزلة العرب من تاريخ الجاهلية فى المعنى اللغوى[6] .

---

(١) سورة الفتح ، الآية ١١ . (٢) سورة الفتح ، الآية ١٦ .

(٣) سورة الحجرات ، الآية ١٤ . (٤) سورة الأحزاب ، الآية ٢٠ .

(٥) مختار الصحاح ط دار الحديث مادة « عرب » ، ص٤٢١ .

(٦) تاريخ آداب العرب للرافعى ، جـ١ ، ص٥٣ وما بعدها ، دار الكتاب العربى ، لبنان .

ولجفائهم وغلظتهم لم يبعث الله منهم رسولاً ، وإنما كانت البعثة فى أهل القرى ، قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾[1] .

وقال عز من قائل :

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[2] .

أى إن الرسل ليسوا من الأعراب وهم أجفى الناس طبعًا وأخلاقًا وهو المعبود المعروف . ولكن تحضر العرب واستقروا فى المدن والأمصار واستعملوا لفظ (الحضر) لأهل المدن ، و(البدو) لأهل البادية ، وكانوا ينسبون إلى تاريخ الميلاد إذا ذكروا بعض قبائل الحضر وبدوها قالوا : القبيلة الفلانية وأعرابها)[3] .

إذًا هناك فارق كبير وبون شاسع بين كلمتى عرب وأعراب .

والدليل على ذلك فوق ما تقدم من أدلة وبراهين ساطعة أن الأعرابى كان إذا قيل له (يا عربى) فرح بذلك وهش والعربى إذا قيل له (يا أعرابى) غضب[4] .

وبعد هذا الإيضاح يستبين لنا أن (ابن خلدون) ظلم العرب ظلمًا بينًا ، وما ذلك إلا لأنه لم يستطيع أن يفرق بين كلمتى (عرب) و (أعراب) فوصفهم بأقبح الأوصاف ، ونسبهم إلى أخس الصفات علمًا بأنها وصف للأعراب وليست وصفًا للعرب . ومن بين هذه الأوصاف ما ذكره ابن خلدون قائلاً : « إن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذى فيهم أهل انتهاب وعبث ينتهمون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون إلى منتجعهم بالفقر ، ولا يذهبون إلى المزاحفة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم فكل معقل أو مستعصب عليهم فهم تاركوه إلى ما يهل عنه ولا يعرضون له ، والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عبثهم وفسادهم لأنهم لا يستمنون إليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر ، وأما البسائط فمتى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهى نهب لهم ،

---

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠٩ . (٢) سورة الأحزاب ، الآية ٣٠ .

(٣) العرب قبل الإسلام لجورجى زيدان ، ص٤١ وما بعدها .

(٤) تاريخ آداب العرب للرافعى ، جـ١ ، ص٥٣ وما بعدها ، دار الكتاب العربى ، لبنان ، بيروت .

وطعمة لآكلهم يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدى وانحراف السياسة إلى أن يتفرض عمرانهم والله قادر على خلقه وهو الواحد القهار لا رب غيره »[1] .

وطفق ابن خلدون يكيل الاتهامات للعرب ، وحقيقة هى طبائع الأعراب فيصفهم بأن التوحش سجيتهم ، وأنهم لا ينقادون لحكم حاكم ، وتلك طبيعة منافية للعمران ومؤدية للفوضى والفساد والخراب فيقول : « إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب ، والسبب فى ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقًا وجبلة ، وكان عندهم ملذوذًا لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له ، فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب ، وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومناف له فطبيعتهم انتهاب ما فى أيدى الناس وأن رزقهم فى رماحهم إلى آخر »[2] .

ثم نراه يقول فى موطن آخر : « إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة ، والسبب فى ذلك أنهم لخلق التوحش الذى فيهم أصعب الأمم بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة فى الرياسة فقلما تجتمع أهواؤهم فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم ، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم ، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس ، فإذا كان فيهم النبى أو الولى الذى يعينهم على القيام بأمر الله يذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق[3] .

بعد ذلك يتم اجتماعهم ، ويحصل لهم التغلب والملك وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات ، وبراءتها من ذميم الأخلاق»[4] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون الفصل ٢٥ ، ص١٤٩ . ط الرابعة دار إحياء التراث ، بيروت ، لبنان .
(٢) المقدمة ، ص١٤٩ ، الفصل السادس والعشرون .
(٣) المقدمة ، ص١٥١ ، الفصل السابع والعشرون .
(٤) ذاته .

وفى الفصل الثامن والعشرين يقول ابن خلدون : « إن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك ، والسبب فى ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم ، وأبعد مجالاً فى الفقر وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقيادهم بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك وللتوحش ، ورئيسهم محتاج إليها غالبًا للعصبية التى بها المدافعة » . ثم يستطرد قائلاً : « وأيضًا فإن من طبيعتهم أخذ ما فى أيدى الناس خاصة والتجافى عما سوى ذلك من الأحكام بينهم ، ودفاع بعضهم عن بعض ، فإذا ملكوا أمة من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما فى أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم »[1] ثم يقول : « فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك ، وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم وتبادلهم بصبغة دينية تمحو ذلك منهم ، وتجعل الوازع لهم من أنفسهم وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض »[2] ولذلك كان (رستم) إذا رأى المسلمين يجمعهم للصلاة يقول : (أكل عمر كبدى ، يعلم الطلاب الآداب)[3] .

ولا يشفع لابن خلدون قوله بعد ذلك كله : « ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم ، أو عدوان شملهم ، فملكة الإسلام فى العدل ما علمت ، وإنما هى طبيعة فى الإنسان إذا غاب على أمره ، وصار آلة لغيره »[4] .

وقد انساق بعض المستشرقين وراء ابن خلدون ، ففسروا لفظ (عرب) بمعنى (البداوة) ويرون أن كلاً من لفظ (عربى) و (أعرابى) معناه (البدوى) وينسبون اللفظين إلى كلمة (العرابة) بمعنى (الصحراء) ويقولون إن أهل البادية فى الجزيرة كان يطلق عليهم (عرب وأعراب) بمعنى سكان الصحراء وكانوا يتميزون عن بعضهم بأسماء القبائل ، ولكن قبل الإسلام فرق أهالى الجزيرة بين كلمتى (عربى) و (أعرابى) فأرادوا بالأولى (الجنس كله) أو سكان الحضر ؛ وأرادوا بالثانية المعنى الأصلى وهو (البدوى) الذى يخيم فى الصحراء ، وعلى أساس هذه التفرقة وردت الكلمات فى القرآن الكريم[5] كما أومأنا إلى ذلك آنفًا : ومن أوثق النصوص التى وردت بها كلمة العرب هو

(١) المقدمة ، ص١٥٢ ، الفصل السابع والعشرون . (٢) ذاته .
(٣) ذاته . (٤) المقدمة الفصل الرابع والعشرون ، ص١٤٨ .
(٥) العرب قبل الإسلام ، ص٣٩ وما بعدها ، ودراسات فى العصر الجاهلى للأستاذ أحمد أبو الفضل ، ص٢٧ ومن الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى أ. د/ سعد ظلام ، ص١٤ بتصرف .

القرآن الكريم ، فقد خاطب القرآن الكريم العرب باسمهم ، وهذا من آكد الأدلة وأصدقها على إطلاق لفظة (العرب) على هذه الأمة .

وإن المستشرق « موللر » يرى أنه لا يمكن الجزم بتعيين الوقت الذى استعمل فيه اللفظ علمًا على أمة العرب متعللاً بعدم وجود نصوص مدونة تبين بجلاء أن العرب حضرهم وبدورهم كانوا يسمون أنفسهم عربًا وهو يشك فى صحة ما ورد فيه لفظ (العرب) فى الشعر الجاهلى وفى الأخبار المروية[1] .

وهذا رأى ضعيف ، وتعليل سقيم ، إذ يستحيل أن يخاطبهم القرآن باسم يطلقه عليهم وهم لا يعرفونه ، وما دام القرآن قد خاطبهم بهذا الاسم فلابد أنهم كانوا يعرفونه قبله ، ودليل آخر يثبت أنهم كانوا يعرفون هذا الاسم قبل مخاطبة القرآن لهم به ، وهو «نقش النمارة»[2] والذى اكتشفه (دوسو) و (ماكار) فى سنة ١٩٠١م على بعد ميل من النمارة القائمة على أطلال معبد روما فى شرقى جبل الدروز بالقرب من الأماكن التى عثر فيها على الكتابات الصفوية ، وقد كتب شاهدًا على قبر (امرئ القيس) وقد أرخ بشهر كسلول من سنة (٢٣٣) بتقويم (بصرى) وهو يوافق شهر كانون الأول ديسمبر من سنة ٣٢٨م .

وقد وردت فيه كلمة (العرب) وذلك فى السطر الأول من النقش وهو : « تى نفس مرا القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج »[3] .

فذلك دليل آخر على أنهم كانوا يعرفون ذلك الاسم من زمن بعيد ، وقبل أن يخاطبهم القرآن به .

---

(١) دراسات فى العصر الجاهلى ، ص٢١ ، ومن الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى ، ص١٥ .

(٢) تاريخ الأدب العربى ، كارل بروكلمان ١/ ٦٣ ط الخامسة ، دار المعارف ، نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار .

(٣) ذاته .

حيوات العرب
الاجتماعية، والسياسية، والدينية والعقلية

مما لا ريب فيه أن للمناخ أثراً فى حيوات أهله فهو الذى يشرع لهم نظام معايشهم ، ويكون فى الأغلب الأعم كثرة كاثرة من طباعهم وسجاياهم ، وبخاصة إذا ما عرفنا أن الجزيرة العربية جافة قاحلة ، وهى يومئذ غير صالحة للزراعة الدورية ولا تتواءم والحياة الحضرية ، فهم يعيشون فى الخيام وعلى رعى الأنعام فيشربون لبنها ، ويطعمون لحمها ، ويكتسون بأصوافها وأوبارها وكانوا يتتبعون بها مواقع القطر والرياض الغن يسيمونها فيها عدا قريش فقد كانوا متحضرين ، وذلك لسدنتهم البيت الحرام وإيلافهم رحلة اليمن والشام ، وإلا القحطانيين لحظ ديارهم من الخصب والمطر ووفرة ما تغله أراضيهم من الحب والثمر ، فإذا انجلت السماء وأمحلت الأرض كان الغزو والعدوان والغارات وإراقة الدماء . ومن هنا كان اعتزازهم بالذكر دون الأنثى والاعتزاز بالكثرة والقرابة الواشجة .

وقد كانت حياة الظعن والتجوال سجيتهم ولذلك كانت الحرية ديدنهم والعصبية طبعهم فلم تكن لديهم مدنية اجتماعية ولا حكومة سياسية ولا أنظمة عسكرية ولا فلسفة دينية . بل كان مجتمعهم يومذاك مجتمع القبيلة والخيمة وليس مجتمع الأمة أو الشعب ، فالقيادة كانت لرؤساء العشائر الذين يحكمون بالأعراف والتقاليد التى أرساها المجتمع الجاهلى كما كان ملكهم وراثيًا ، ولم يكن هناك ملوك متوجون إلا فى الحيرة والشام بيد أنهم لم يكونوا مستقلين .

فاللخميون فى الحيرة يتبعون الأكاسرة والغسانيون فى الشام يتبعون القياصرة ، وإذًا فمعانى الحضارة والرأى العام والأرستقراطية والديمقراطية والإقطاع لا ألفاظ لها عند العرب والساميين جميعًا[1] .

وأما من الناحية الدينية فقد كان دين بساطة وسذاجة وتقشف ، فلم يكن للعرب ما كان للإغريق من تعدد الآلهة وضخامة الهياكل وإقامة التماثيل ووفرة الأساطير وفلسفة العقائد ، وإنما كان بقية أثرية من دين « إبراهيم » جاءتهم من وراء القرون عن طريق

(١) تاريخ الأدب العربى للأستاذ / أحمد حسن الزيات .

الوراثة مشوهة لتطاول العهد وتحكم الجهالة وعدم القرار ، فحالت فى نفوسهم إلى عبادة الأصنام وتعظيم الأوثان ونصبها على الكعبة تقربًا بها إلى الله على زعمهم .

وهذه الوثنية كانت دين الكثرة من العرب . أما القلة فكان بعضها على اليهودية فى اليمن وفى يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء وبعضها على النصرانية بنجران والحيرة وفى قبائل طئ والغساسنة بالشام[1] .

ومع هذا فإننا نرى فى عرب الجاهلية من كان يؤمن بالله ويعترف بالبعث ، وأن هناك ثوابًا وعقابًا ومنهم من كان يعبد الله وينكر الرسل ومنهم أيضًا الدهريون ، ومنهم من عكف على عبادة الأصنام ليقربوهم إلى الله زلفى حسب زعمهم واعتقادهم .

يقول المسعودى[2] : « كانت العرب فى جاهليتها فرقًا ، منهم الموحد المقر بخالقه ، المصدق بالبعث والنشور موقنًا بأن الله يثبت المطيع ويعاقب العاصى ومنهم من دعا إلى الله عز وجل ونبه أقوامه على آياته فى الكون كقس بن ساعدة الإيادى وذئاب الشنى وبحيرا الراهب وكانا من « عبد القيس » .

وكان من العرب من أقر بالخالق وأثبت حدوث العالم وأقر بالبعث والإعادة وأنكر الرسل وعكف على عبادة الأصنام وهم الذين حكى الله عز وجل قولهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وهذا الصنف هم الذين حجوا إلى الأصنام وقصدوها وتحروا لها البدن ونسكوا لها النسائك وأحلوا لها وحرموا . ومنهم من أقر بالخالق وكذلك بالرسل والبعث ، ومال إلى قول أهل الدهر . وهؤلاء الذين حكى الله تعالى إلحادهم وخبر عن كفرهم بقوله تعالى ، وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر فرد الله عليهم بقوله :

﴿ ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ .

ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية . ومنهم المار على عنجهيته الراكب لهجمته[3] .

وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة ، ويزعمون أنها بنات الله ، فكانوا يعبدونها لتشفع لهم إلى الله ، وهم الذين أخبر الله عز وجل عنهم بقوله تعالى :

---

(١) تاريخ الأدب العربى للأستاذ / أحمد حسن الزيات .

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى ، المجلد الثانى ، ص١٢٦ ، ١٢٧ ، تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد ، ط دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

(٣) يقول المحقق يرحمه الله : ربما كانت (الراكب للهجميته) وهذا أقرب إلى المعنى وللصواب .

﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾ .

وقوله تعالى :

﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذا قسمة ضيزى ﴾ .

فمن كان مقراً بالتوحيد ، مثبتًا للوعيد ، تاركًا للتقليد ، عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف ، وقد كان حفر بئر زمزم ، وكانت مطوية ، ذلك فى ملك كسرى[1] . وكان عبد المطلب أول من أقام الرفادة والسقاية للحاج ، وكان أول من سقى الماء بمكة عذبًا ، وجعل باب الكعبة مذهبًا وفى ذلك يقول عبد المطلب :

أعطى بلا شح ولا مشاحح سقيًا على رغم العدو الكاشح
بعد كنوز الحلى والصفائح حليًا لبيت الله ذى المسارح[2]

أما الأسرة فهى نواة القبيلة ، وقد كان حالها أشبه ما يكون مجال الأسرة المصرية التى تتألف من الأبوين ثم الأولاد والأحفاد والرقيق ، وكان سلطان الأب مطلقًا ، وكان يئد ابنته[3] خشية الفقر ، ويأنف أن ينسب إليه ابن الأمة خوف العار ، وكانت الزوجة تحتل فى الأسرة المكانة الثانية ، يجلها الزوج ويشركها فى أموره ، ويتغنى باسمها فى أشعاره ويفاخر الابن بنسبته إلى أمه كما يفخر بنسبته إلى أبيه ، وكان عقد الزواج هو الرباط الغالب بين الرجل والمرأة ، وللرجل وحده حق الطلاق ما لم يشترط عند العقد خلاف ذلك .

---

(١) يقول المحقق يرحمه الله : ربما كانت (الراكب للهجميته) وهذا أقرب إلى المعنى وللصواب ، ص١٢٧ .

(٢) ذاته .

(٣) الوأد لم يكن عامًا ، وإنما كان خاصًا ببعض قبائل : تميم وأسد .

الصنم : ما كان على صورة إنسان من حجر أو فضة أو ذهب .

والوثن : ما كان على حجرًا غفلاً من الصنعة .

الفراسة : هى الاستدلال بالأمور الظاهرة على الأمور الخفية : مثل الاستدلال بشكل المرء ولونه وقوله على خلقه ، فيستدلون باتساع الجبين على الذكاء ، وبعرض القفا : على الغباء ، وبضيق العين على الشح ، وبغلظ الشفتين على الإسراف فى الحب والبغض .

القيافة : قيافة الأثر وهى الاهتداء إلى الهارب بآثار قدميه ، وقيافة البشر وهى الاستدلال بهيئة الإنسان وشكل أعضائه على نسبه .

وقد كانت لديهم أنواع أخرى من الزواج تشبه المسافحة ، وكان الواحد منهم يلقى رجلاً معه امرأة وليس من أفراد قبيلته ولا من حلفائها فيتقابلان ، فإذا قهره أخذها منه سبية واستحلها بذلك ، وكانوا يعونون بين الزوجات إلى حد مجهول ، ويحلون الزواج من امرأة الأب ، ويحرمون البناء بالبنت والأخت والخالة والعمة ، أما علاقاتهم فقد كانت مبنية على أساس المنطق الجاهلى (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا) مهما كان بين أفراد القبيلة من فرك وشنان وكراهية .

وأما حالهم العقلية فقد كان التبابعة فى اليمن ، والمناذرة والغساسنة فى الشمال على حظ وافر من العلوم والدليل على ذلك ما أحبوه من الأرض ، وعمروه من المدن ، وما أقاموه من السدود ، أما العدنانيون فقد أكسبتهم قوة الملاحظة ، والتجارب الكثيرة طائفة من العلم المبنى على التجربة والاستقراء ، فعرفوا الطب والبيطرة والخيل لاتصالها بالمعارك والحروب ، ولاحظوا الأنوار والنجوم والرياح لعلاقتها بالكلأ والغيث ، وليهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، كما أنهم برعوا فى علم الأنساب والأخبار والشعر ، كما كانوا فرسانًا فى الفراسة والقيافة ، وصفة الأرض لكشف الدعى ، وطلب الهارب منهم إلى غير ذلك من الكهانة والعرافة وزجر الطير مما كانوا يعتقدونه ثم جاء الإسلام فنفاه ، بل وشدد النكير على من يعتقد فيه .

وعلى أية حال فإن المجتمع الجاهلى كان مجتمعًا مفككًا من النواحى اللغوية ، والاقتصادية والسياسية ، مترابطًا من المناحى الأدبية والعقلية والخلقية . (ولو ساغ لنا أن نحكم على العرب بمقتضى لغتهم وأدبهم لوجدنا لهم نقوشًا كبيرة ، وأذهانًا بصيرة ، وحنكة خيرة ، ومعارف واسعة كونوا أكثرها من نتاج قرائحهم ، وثمار تجاربهم ، فإن لغتهم وهى صورة اجتماعهم لم تدع معنى من المعانى التى تتصل بالروح والفكر ، والجسم والجماعة ، والأرض والسماء وما بينها إلا استوعبت أسماءه ، ورتبت أجزاءه ، كما يدلنا على ذلك كتاب (فقه اللغة للثعالبى) ، ووضع اللفظ للشىء دليل على وجوده وعلمه ، ولعمرى ما يكون التمدن اللغوى إلا بعد تمدن اجتماعى راق فى حقيقته ، وإن لم يرق فى شكله ، عام فى أثره ، وإن لم يعم فى أهله [1] .

(١) تاريخ الأدب العربى للزيات ، ص١٢ بتصرف .

١ - أقسام العرب القدامى

اعتاد المؤرخون تقسيم العرب القدامى إلى ثلاثة أقسام بيد أنهم يختلفون فى التسمية فمنهم من يقول إنها ؛ بائدة أو عاربة ، ومستعربة ، وتابعة للعرب ومنهم من يخلف ذلك فيذهب إلى أنها : (بائدة ، وعاربة ، ومستعربة) ومنهم من يطلق عليها (عاربة ، وقحطانية ، وعدنانية) ومنهم من يجعلها (عاربة ، ومتعربة ، ومستعربة) وابن خلدون يجعلهم أربعة أقسام (عاربة ومستعربة وتابعة للعرب ، وعرب مستعجمة) والمقصود بالعرب المستعجمة من له ملك بدوى بالمشرق والمغرب ، وسموا بذلك لاستعجام لغتهم على اللسان المصرى الذى به القرآن الكريم .

والواقع أن الخلاف لفظى فحسب حيث إن المقصود واحد ، ولا يوجد خلاف بين هذه الأقسام إلا فى التسمية فقط وإليك بيانها[١] :

أولاً : العرب العاربة :

وهو لفظ مشتق من (العرب) وهى إما بمعنى الراسخة فى العروبة كما تقول (ليل لائل) وإما بمعنى الفاعلة للعروبية أو المبتدعة لها لكونها أول أجيالها[٢] .

وذلك القسم يسمى أيضًا (العرب البائدة) لأنهم هلكوا وبادوا ولم يبق من نسلهم أحد ، وامحت آثارهم ولم يبق على وجه الأرض أحد منهم ومنهم عاد ، وثمود والعمالقة ، ومدين ، وطسم وجديس ، وعبد ضخم وأميم ، وحضور ، وحضرموت ، وجرهم الأولى .

---

(١) مقدمة ابن خلدون والمزهر ، جـ١ ، ص٣١ .

(٢) بلوغ الأدب للألوسى ، جـ١ ، ص٩ .

يقول تعالى :

﴿ وأنه أهلك عاد الأولى ، وثمود فما أبقى ﴾[1] .

أما القحطانيون وهم أولاد يعرب بن يشجب بن قحطان فقد لازموا الديار اليمانية زمنًا ، ثم تفرقت قبائلهم فى الجزيرة والشام ، ومن قبائلهم الذين سكنوا الحجاز قبيلة جرهم التى سكنت مكة بإذن (هاجر) أم (إسماعيل) عليه السلام[2] .

ثانيًا : العرب المستعربة :

وهم أولاد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقيل لهم العرب المستعربة ، لأن إبراهيم عليه السلام لم يكن من أولاد يعرب ، وإنما كان من أولاد عابر بن شالخ ابن أرفشخد بن سام بن نوح ، ولذا كانت لغته غير العربية وهى السريانية لغة الكلدانيين من سكان (بابل) العراق ؛ كما تكلم بلغة الكنعانيين بالشام أيضًا عند هجرته إلى الشام ، ولم يتكلم بالعربية وأما إسماعيل عليه السلام فإنه بحكم نشأته بين أفراد قبيلة (جرهم) اليمانية القحطانية التى سكنت مكة بإذن والدته (هاجر) ، كما أومأنا إلى ذلك آنفًا ، فقد تعلم العربية وتفوق على أهلها فيها بيانًا وأدبًا وبلاغة ، كما تعلمها أولاده منه ومن أمهم السيدة بنت مضاض الجرهمية ، ومن أخوالهم المجاورين لهم بمكة أيضًا ، فلهذا قيل لهم (العرب المستعربة) نظرًا إلى أن جدهم غير عربى وهو (إبراهيم) وإن ولده (إسماعيل) استعرب هو وبنوه حيث تعلموا لغة العرب وتكلموا بها ، وفازوا فيها ؛ ومن هنا قيل فى القبائل العدنانية عامة العرب المستعربة[3] .

---

(١) راجع فى ذلك بالتفصيل مروج الذهب للمسعودى ، جـ٢ ، من ص ١٣٢ إلى ص١٥٢ ، تحقيق الشيخ محمد محى الدين .

(٢) هذا الحبيب محمد يامحب تأليف أبو بكر جابر الجزائرى ، ط الأول ، سنة ١٤٠٨هـ ، سنة ١٩٨٨م ، ص١٨ .

(٣) ذاته ، ص١٩ ، وأيضًا أدباء العرب فى الجاهلية والإسلام تأليف : بطرس البستانى ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٩٤٧م .

ثالثًا : العرب البائدة :

وهم الذين بادوا أى هلكوا وهم (طسم وجديس ، وعاد ، وثمود) هكذا يقول النسابون والمؤرخون ، فأما (طسم ، وجديس) فقد اقتتلوا ، أى قاتل بعضهم بعضًا حتى هلكوا جميعًا ، وأما عاد وثمود فقد أصروا على الشرك والتكذيب لرسوليهم هود وصالح عليهما السلام ، حتى أهلكهم الله تعالى ، وقد جاءت أخبارهم فى القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ **فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية** ﴾[1] .

(١) هذا الحبيب محمد يامحب تأليف أبو بكر جابر الجزائرى ، ط الأول ، سنة ١٤٠٨هـ ، سنة ١٩٨٨م ، ص١٨ ، وأيضًا أدباء العرب فى الجاهلية والإسلام تأليف : بطرس البستانى ، بيروت ، لبنان ، سنة ١٩٤٧م .

أثر البيئة الجاهلية
« فى الأيام العربية »

لم يكن بشبه الجزيرة العربية أنهار تجرى بانتظام ، أو ينابيع تفيض بصفة مستمرة . وما كان يسقط من أمطار يضيع جله فى بواطن الرمال ، وما يتبقى من آثارها ينبت الكلأ والعشب .

وكان من أثر هذا أن عاش البدوى فى تنقل مستمر بحثًا عن الطعام لماشيته ، ومع أن بعض القبائل كانت لها منازل وديار حول بعض منابع الماء ، فإنهم لم يكونوا يقيمون فيها على الدوام ، بل كانوا بمجرد أن تغطى سهول (نجد) ومنحدراتها بالعشب يتحركون نحوها بحيواناتهم ، ويستولى كل منها على مكان معين إلى أن ينتهى المرعى فيعودون ثانية إلى منازلهم[1] .

ومما لا ريب فيه أن تسابق العرب فى الجاهلية على منابت الكلأ والعشب والرغبة فى الاستيلاء عليه ، أو على جزء كبير منه ليرعوا أنعامهم خليق أن يؤدى ذلك إلى صدام بين هذه القبائل تسل فيه الأسياف من أغمادها لتحطب فوق أعناق الرجال وبخاصة أن الصحراء العربية لم يكن من العشب ومنابت الكلأ ما يكفى جميع ماشيتهم لمدة طويلة مما دفعهم إلى التسابق على استحواذه ، والظفر بأكبر جزء منه . . كل هذه الأسباب جعلت التصادم بينهم متوقعًا بل أمرًا محتومًا .

وكانت بلاد العرب فى الجاهلية ينتشر فيها البؤس والفقر المدقع الذى يجعل على العيون غشاوة تحجب رؤية الحق ويصبح الجوع ملهبة يجعل من أصحابه ليوثًا ضراغمة تهش إلى الطعام .

---

(١) شعر الحرب للدكتور : على الجندى ، جـ١ ، ص١٠ ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية .

ومن هذا المنظور كان الحرمان والفقر المدقع والذى يضرب طنبه على شبه الجزيرة العربية مصدر خطر على ذوى اليسار منهم . وكان أمرًا طبيعيًا أن تشن الغارات . وتنشب الحروب فى هذه الحقبة ، كما أدى ذلك الفقر والبؤس إلى ظهور « فريق من الصعاليك » بقيادة زعيمهم (عروة بن الورد) وكان ذلك الفريق والذى يشبه إلى حد كبير (قطاع الطرق) يمتازون بقوة أجسامهم وسرعة عدوهم وفائق شجاعتهم ، وكانت القبائل جميعها معرضة لغاراتهم ، وقد ساعد هؤلاء الصعاليك على السطو وشن الغارات ، وسلب ونهب الأموال وجود الحرية المطلقة آنذاك فى الجزيرة العربية ، فكل شىء فيها يستنشق أرج الحرية ، ويتنسم عبير الديمقراطية ، فالحيوان يجرى كما يشاء فى أرضها الفسيحة ، والطير يمرح فى الهواء مفردًا وكل شىء فيها ينعم بالحرية ، والإنسان ليس بأقل شأنًا من ذلك كله فى الحرية والانطلاق فهو أرهف حسًا ، وأقوى شعورًا من غيره بالحرية .

كل ذلك جعل العربى يتعشق الحرية ، ويبذل فى سبيلها كل غال ومرتخص .

والنظام الذى كان سائدًا فى الجزيرة العربية هو النظام القبلى ، الوحدة الاجتماعية فيه هى القبيلة ، ويرأس القبيلة شيخ كبير مجرب يمتاز بالحكمة ، وسداد الرأى ، وسعة الثراء وهو الذى يقودها فى الحروب ، ويفصل بينها فى المنازعات والمشاحنات ، ويستقبل الوفود باسمها ، ويعقد الصلح والمخالفات نيابة عنها ، ويحمل القسط الأكبر من جرائرها وادياتها ، ويقوم بمعظم واجباتها وينهض بها ، وله فى مقابل ذلك حق الطاعة والتوقير ، ومن هذه الوحدات القبلية يتكون المجتمع الجاهلى[1] .

وكان أبناء القبيلة يؤمنون بوحدتها ويتعصبون لها ويتضامنون فيما بينهم إذا ما اقترف أحدهم جرمًا أو ارتكب جناية ، كما يقول المثل العربى : (فى الجزيرة تشترك العشيرة) ويعملون بالمثل القائل : (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا)[2] .

وإذا ند الفرد عن القبيلة وتمرد على عاداتها وأعرافها خلعته القبيلة ، ويسمى حينذاك (خليعًا) وقد يفر ذلك المخلوع إلى الفيافى مطرودًا مشردًا ، وقد يلجأ إلى إحدى

(١) من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى د/ سعد ظلام ، ص٣١ ، ٣٩ .

(١) من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى د/ سعد ظلام ، ص٢١ ، ٣٢ .

القبائل طالبًا الجوار ليعيش فى كنفها وحمايتها ورعايتها ، وقد يرفض الخليع أن يعيش فى كنف قبيلة أخرى أنفة وكبرياء فيلجأ إلى الصحراء ويعيش بين كهوفها ووهادها قاطعًا للطريق مهددًا أمن الآمنين ، ومعتديًا على النعم والماشية والأموال . ومن هؤلاء الخلعاء تكون فريق الصعاليك ، ومنهم (عروة بن الورد) و (قيس بن الحدادية) و (تأبط شرا) و(السليك بن السلكة) و (الشنفرى) .

وحيث إن الجزيرة العربية يخيم عليها الفقر كما أومأنا إلى ذلك آنفًا ، وهى صحراء متسعة الأرجاء تضل فيها المسالك وتلتوى الطرق من جراء المرتفعات والوديان والشعاب الوعرة والجبال المخيفة . لذا كان العربى يفاخر ويباهى بأنه كريم ينقذ الجائع وشجاع يخف لنجدة المستغيث وصاحب أنفة وإباء فهو يحمى المستجير به كما أنه لزامًا عليه حماية الحمى وصون شرف القبيلة . . . كل ذلك دفع العربى فى الجاهلية لخوض غمار الحروب التى أريقت فيها دماء كثيرة وأزهقت نفوس أكثر .

أضف إلى ما تقدم أن القبائل كانت متناحرة بسبب أن كل قبيلة تريد أن يكون لها حمى أوسع ونفوذ أكبر وسيطرة على ربوع الوديان المعشبة ، وهى تفاخر بذلك مما أدى إلى نشوب المعارك المضارية بين القبائل . فالبيئة الجاهلية يومذاك هيأت للجاهليين قيام المعارك وشنوب الحرب .

ومثل ما آمنت القبيلة بوحدتها ، ازداد إيمانها بدمها وجنسيتها وعرقها حيث إن أبناءها كانوا يعتقدون بأنهم فوق كل القبائل حسبًا وشرفًا وشجاعة وكرمًا . ومن هنا نشأت المنافرات والمفاخرات .